كيف أتوب؟!

تأليف

محمد حسين يعقوب

اعتنى به وحققه

أسامة بن عبدالفتاح

شبكة مجاهد مسلم الاسلامية
www.islammi.jeeran.com
islammi@hotmail.com
www.geocities.com/moujahedmouslem
الأربعاء ١ كانون الأول ٢٠٠٣
الموافق في ٢٧ شوال ١٤٢٣
منير
بيروت لبنان

دار التقوى للنشر
الطبعة
١٣٢٢هـ _ ٢٠٠١ م

كيف أتوب؟!

" وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها
فضلا عن القيام بها علما وعملا وحلا
ولم يجعل الله محبته للتوابين
إلا وهم خواص الخلق لديه"
إبن القيّم

إلهي وسيدي
أتيت أطباء عبادك
ليداووا لي خطيئتي
فكلهم عليك يدلني

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
" من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه"
(صحيح: أخرجه مسلم ٢٤/١٧ – ٢٥) ٢٧٠٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا ناقض لما بناه.. ولا حافظ لما أفناه.. ولا مانع لما أعطاه.. ولا رادّ لما قضاه.. ولا مظهر لما أخفاه.. ولا ساتر لما أبداه.. ولا مضلّ لمن هداه.. لا هادي لمن أعماه..

سبحانه.. أنشأ الكون بقدرته.. وما حواه.. ورزق الصون بمنّته ومنّة من والاه ..{ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه} [الاسراء٢٣].

سبحانه.. خلق آدم بيده وسوّاه.. وأسكنه في حرم قربه وحماه.. وأمره كما شاء ونهاه.. ثم أجرى عليه القدر بموافقته هواه.. فنزعت يد التفريط ما كساه.. ثم تاب الله عليه فرحمه واجتباه.. وحاله ينذر من يسعى فيما اشتهاه.

طرد إبليس وكانت السموات مأواه.. فأصمّه بمخالفته كما شاء وأعماه.. وأبعده عن بابه للعصيان وأشقاه.. وفي قصته نذير لمن خالف الله وعصاه..

ألان الحديد لداود كما تمنّاه.. يأمن لابسه من يلقاه.. ثم صرع صانعه بسهم قد ألقاه.. فلما تسوّر المحراب خصماه.. أظهر جدال التوبيخ فخصماه.. { وظنّ داود أنّما فتنّاه} [ص: ٢٤].

ذهب ذو النون مغاضبا فالتقمه الحوت وأخفاه.. فندم لما رأت عيناه ما جنت يداه.. فلما أقلقه كرب ظلام تغشاه.. تضرع مستغيثا ينادي مولاه.. { إني كنت من الظالمين} [الأنبياء: ٨٧] فنجيناه..

أحمده سبحانه وتعالى... تعالى ربنا سبحانه وحاشاه.. أن يخيب راجيه وينسى من لا ينساه..

أخذ موسى من أمه طفلا ورعاه.. فساقه لى حجر عدوة فربّاه.. وجاد عليه بنعم لا تحصى وأعطاه.. فمشى في البحر وما ابتلت قدماه.. وتبعه عدوّه فأدركه الغرق ووراه.. حتى إذا قال: آمنت.. إذا جبريل بالطين يسد فاه.. وكان من غاية شرف موسى ومنتهاه.. أنه خرج يطلب نارا فناداه.. {ياموسى إني أنا الله} {القصص: ٣٠].. شرف أمته شرفا بما أولاه.. فقال ربنا لهم:{ وأني قد فضلتكم على العالمين} [البقرة: ٤٧] ولكن جئنا بـ { كنتم خير أمة أخرجت للناس} [آل عمران:١١٠] أخذناه.. فالحمد لله.

خلق محمدا فاختاره على الكل واصطفاه.. صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقربه منه حتى كان قاب قوسين وأدناه.. فأوحى إليه من سرّه وكلمته ما أوحاه.. ووعده المقام المحمود فاللهم بلّغه مناه..

الحمد لله الذي دلنا بنبيه عليه وعرفناه.. وأجلنا بالقرآن العظيم وعلمناه.. وهدانا الى بابه بتوفيق أودعناه..

أحمده سبحانه حمدا لا ينقضي أولاه ولا ينفد أخراه.. فالحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله..

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. صلى الله على محمد ما تحركت الألسن والشفاه.. وعلى آله وصحبه صلاة دائمة تدوم بدوام ملك الله.. ثم سلم تسليما كثيرا.

أما بعد

ففي جلسة مناجاة مع النفس ومحاسبة لها على تفريطها.. ساءلت نفسي وساءلتني.. كيف تعرفين الله، وتقرين بنعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم تبارزينه بالمعاصي في الليل والنهار..؟!
وقلت لها: أما تخسين الخسف..؟! أما تخافين العقاب..؟!
وقلت لها: ألا تتوقين الى الجنة بحورها وحريرها ونعيمها الذي لا ينفد..؟! ألست تهربين من النار بزمهريرها وأغلالها وعذابها الذي لا ينتهي..؟!
ثم قلت لها: اختاري..
فقالت أتمنى يوما أتوب فيه الى الله..
فقلت لها: أنت في الأمنية فاعملي..
قالت: فكيف..؟! صف لي الطريق.. وبيّن لي العقبات.. قل لي.. كيف أتوب..؟!!

أخي التائب.. لا بد أن تعلم أن أول الطريق وقفة.. والسير في الطريق عمل.. وزاد الطريق توبة..
واعلم أن الموت يأتي فجأة.. يقول ربنا سبحانه وتعالى:{ قل يعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم* وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون* واتّبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون* أن تقول نفس يحسرتي على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتقين* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين* بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين} [الزمر ٥٣-٥٩].

واعلم أخي التائب أنك تطلب السعادة.. وتروم النجاة.. وترجو المغفرة.. يقول ربنا:{ وإني لغفّار لمن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه: ٨٢]...

فالتوبة ـ أخي التائب ـ هي ملاك أمرك.. هي مبعث حياتك.. هي مناط فلاحك.

يقول إبن القيم::

منزل "التوبة" أول المنازل وأوسطها وآخرها.. فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه الى الممات.. وإن ارتحل الى منزل آخر ارتحل به واصطحبه معه ونزل به.. فالتوبة هي بداية العبد ونهاية حاجته اليها في النهاية ضرورية.. كما أن حاجته اليها في البداية كذلك..
وقد قال الله تعالى:{ وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور: ٣١]. وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الايمان وخيار خلقه أن يتوبوا اليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبّب بسببه.. وأتي بأداة "لعل" المشعرة بالترجي.. إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم علي رجاء الفلاح.. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.. جعلنا الله منهم..

ولما كانت "التوبة" هي رجوع العبد الى الله.. ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين.. وذلك لا يحصل إلا بهداية الله الى الصراط المستقيم.. ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده.. فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن إنتظام.. وتضمنتها أبلغ تضمن فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علما وشهودا وحالا ومعرفة علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح.. فإن الهداية التامة الى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب.. ولا مع الاصرار عليها.. فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى.. والثاني غي ينافي قصده وإرادته.. فلذلك لا تصلح التوبة إلا بعد معرفة الذنب.. والاعتراف به.. وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا.

وها نحن نشرع في بيان ذلك أتم تبيان ـ إن شاء الله .

إن الموضوع الذي نطرحه هنا من الأهمية بحيث لا يستغني عنه شاب لا شيخ.. موضوعنا مهم للمبتدئ والمنتهى.. للسالك والواصل للتلميذ والمريد.. إنه موضوع الساعة وكل ساعة..

موضوعنا:

كيف أعود الى الله

إن هذا الموضوع الملح جدّ خطير في هذه الآونة بالذات، بعد أن صرنا أعاجم لا نفهم لغة القرآن..
وحال تكلم اللغة الباسلة مع أبنائها يندى له الجبين خجلا، فهي ما تزال شامخة رغم انصراف أبنائها عنها، فقد هانت عندنا لما استسلمنا لغزو أعدائنا لها، بداية من التقليل من شأنها وإزدرائها، ثم الدعوة الى إحلال [العامية] محلها، مما ترتب عليه ما نعانيه ـ الآن ـ والمقصود: أن المصاب فينا لا في تراثنا ولا كتب سلفنا فإنها يسيرة يسيرة، لكن العيب في ذوقنا اللغوي.
ويكفي في هذا المقام أن نتدبر كلام الوليد بن المغيرة في تأثير القرآن عليه وبين ما تكنه صدورنا تجاه لغة القرآن، فالوليد ـ مع كفره وجحوده وانصرافه النفسي والوجداني عن القرآن ـ قال: إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه ليعلو ولا يعلا عليه.

ونحن ـ مع إسلامنا وتقديسنا للقرآن ـ لا نستشعر تلك المعاني إلا بصفة القداسة للقرآن. (انظر حول قضية لغتنا الباسلة للشيخ محمود شاكر " في الطريق إلى ثقافتنا").
فإن القرآن نزل أول ما نزل بلسان عربي مبين فكان من السهل على العرب الذين أرسل فيهم النبي المختار صلى الله عليه وسلم أن يفهموا لغته ولسانه وتهتز قلوبهم لسحر بيانه..

ومن حكمة الخالق جل وعلا أنه أرسل الرسل بلسان قومهم حتى يبينوا لهم شريعة الله تعالى وهو القائل:{ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم:٤].

ولقد ذكرنا قبل أن كتابات السلف صارت بالنسبة لشباب الصحوة كلاما صعب الفهم والتطبيق.. " مرة أخرى نبين الا لصعوبته وإنما لجهلنا وجفائنا مع اللغة ومع الشرع ومع الله". فقد تغيرت لغة الكلام في عصرنا "وأقصد بتغيير لغة الكلام لا للأفضل ـ لا سمح الله ـ ولكن بالتدني للغة العامية وتلقيحها بالألفاظ غير العربية".
وصارت كلمات السلف لدينا تحتاج الى إعادة شرح وتفصيل...

ونضرب لهذا مثلا: فقد جاء في تعريف " اليقظة" على لسان إبن القيم أو أبي إسماعيل الهروي شيخ الاسلام " أن اليقظة" هي انزعاج القلب لروعة الانتباه..

ونحن على يقين من أن هذا الكلام الآن صار يحتاج الى شرح ثم الى بسط.. رغم أنه كان إذا طرح على السلف فسرعان ما يتفهمون مراده.. ثم يسارعون في العمل بمقتضاه..

وتأسيسا على ما سبق وفي ضوء هذه المعضلة.. فسوف نحاول في هذا المقام بسط مسائل التوبة الى أقصى ما نستطيع، فمن وافقه الأمر ممن يبغي السلوك الى الله فبها ونعمت.. ومن لم يجد فليصبّر نفسه الى النهاية.. فسيجد ما ينشرح له صدره إن شاء الله. فما لم يتأتى بالجهد في الشرح والكلام يتأتى إن شاء الله وقدّر بالدعاء..

فإن الله سميع بصير.. وبالإجابة جدير.. ونسأل الله أن يرزقنا توبة نصوحا، فالتوبة رزق..

ولإستثمار الوقت فيما يفيد نبدأ الموضوع مباشرة بالسؤال الأول والأهم.

لماذا

نتوب؟!!

من غرس في نفسه شرف الهمة

فنبت نبت نفسه عن الأقذار، ومن

استقر ركن عزيمته وثبت

وثبت نفسه عن الأكدار

لماذا نتوب؟

إنها قضية ملحة تأتي نتيجة جهل الناس بالدين في عصرنا.. وجهلهم حتى بالمعاصي التي يقترفونها.. فإن معنى المعاصي معنى كبير يندرج تحته الكثير مما قد يظنه الناس في عصرنا مباحا.

فلاب تساؤل تطرحه امرأة متبرجة: لماذا أتوب..؟! وجهي جميل فلم أستره؟

نفس السؤال يطرحه شاب.. إن متعتي أجدها في السيجارة فلم أتركها.. أهوى مشاهدة التلفزيون فلماذا أدعه.. أنا لا أحب التقيد والارتباط.. فلم أتقيد بمواعيد الصلاة..؟! أليس ينبغي على الانسان فعل ما يسعده.. فالذي يسعدني هو ما تسمونه معصية وأنا غير مقتنع بهذه التسمية.. فلماذا وممّ أتوب.

إنها قضية تطرح نفسها.. يسمعها الكثير والكثير منا حين يود دعوة بعض الناس الى الله والإجابة على هذا السؤال هي في أن نعرف لماذا نتوب؟

النية في التوبة

أولا ـ لكوننا نعود بالتوبة الى الصراط المستقيم:

فقد قال ربنا: { وام خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦] لا ليعصون.. لا ليلعبوا.. لا ليتبعوا أهوائهم.. ولا حتى ليعمروا الأرض وينجبوا الذرية.. أبدا.. وإنما {ليعبدون} .. فالعاصي ليس بعابد، فإذا قلنا: تب، فمعنى هذا: عد الى أصل خلقتك وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى!!

ثانيا ـ طاعة لأمر الله عز وجل:

فهو الذي قال في كتابه العزيز: { وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور: ٣١] طاعة لأمر الله { يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا} [التحريم: ٨] أمر الله.. الملك.. المهيمن.. مالك الملك.. الذي ينبغي أن نتمثل ونذعن لأمره.. فنتوب تعبّدا.. طاعة للملك.

ثالثا ـ فرارا من الظلم الى الفلاح:

قال ربنا: {ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} [الحجرات: ١١].

اعلم ـ أخي في الله ـ أن الظلم كل الظلم في انصلافك عن التوبة.. في سيرك حيث تخالف ربك.. وإصرارك على المضي قدما في طريق هواك.. وهو الهلاك.. فتظلم نفسك حين توقعها في شراك المعاصي.. في حين بشر ربنا التائبين بالنصرة والفلاح فعلق حصول الفلاح المرجو لهم على حصول التوبة منهم اليه فقال ربنا عز وجل: { وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} [النور:٣١].

فهذه الأية مدنية.. خاطب الله بها أهل الايمان وخيار خلقه أن يتوبوا اليه.. بعد إيمانهم وصبرهم.. ثم علق الفلاح بالتوبة.. وأتى بأداة " لعل" لاشعار الترجي.. إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح.. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.. جعلنا الله منهم.

رابعا ـ لطلب السعادة:

إن كثيرا من العصاة يعيشون سعادة وهمية زائلة مؤقتة.. بل على التحقيق أنها ليست بسعادة.. إذا رأيت رجلا يستلذ بالتراب عن شهي الطعام والحلوى.. هل تحكم عليه بسلامة الحس أم بسقمه..؟! إن الذي يأكل التراب يستلذ به أو الحجارة فتكون شهوته، لا شك أنه سقيم.. مريض يحتاج الى علاج.. وكذلك من يتلذذ بالمعاصي.. إنه يشعر بذلك، لا لأن المعاصي لذيذة، وليس لأن السيئات ممتعة وإنما لكون قلبه قد صار فاسدا.. فاللهم أصلح قلوبنا..

فهذا يحتاج الى إصلاح قلبه.. فمثله كمثل الرجل في مكان دبغ الجلود فإنه لا يشم الرائحة الكريهة إلا عندما يخرج منه..

وهذا العاصي مثله فنقول له: أخرج من المعاصي.. تب الى الله فعندها ستعرف سوء ما كنت عليه وقبح ما كنت تفعل.. كم من العصاة قال حين تاب: كم كنت قذرا.. كم كنت سيئا..

كم كنت خاسرا.. كم كنت لاهيا.. كم كنت غافلا.. إنه بذلك يعلم! يقينا ـ أن ما كان عليه عين الباطل وأنه قد كان غافلا أو مغفلا.. فاللهم تب على عصاة المسلمين.

وأسوق إليك ـ أخي في الله ـ بعض كلمات التائبين نقلتها بنصها من كتاب "العائدون الى الله" لمحمد المسند:

- كنت أبكي ندما على ما فاتني من حب الله ورسوله.. وعلى تلك الأيام التي قضيتها بعيدة عن الله عز وجل. (إمرأة مغربية أصابها السرطان وشفاها الله منه).
- نعم لقد كنت ميتا فأحياني الله ولله الفضل والمنة. (الشيخ أحمد القطان).
- وعزكن على التوبة النصوح والاستقامة على دين الله.. وأن أكون داعية خير بعد أن كنت داعية شر وفساد..

وفي ختام حديثي أوجهها نصيحة صادقة لجميع الشباب فأقول: يا شباب الاسلام لن تجدوا السعادة في السفر ولا في المخدرات والتفحيط.. لن تجدوها أو تشموا رائحتها إلا في الالتزام والاستقامة.. في خدمة دين الله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ماذا قدمتم ـ يا أحبة ـ للإسلام؟ أين آثاركم؟ أهذه رسالتكم؟

شباب الجيل للإسلام عودوا فأنتم روحه وبكم يسود
وأنتم سر نهضته قديما وأنتم فجره الزاهي الجديد
(من شباب التفحيط سابقا).

- كما أتوجه الى كل أخت غافلة عن ذكر الله.. منغمسة في ملذات الدنيا وشهواتها أن عودي الى الله ـ أخيّة ـ فوالله إن السعادة كل السعادة في طاعة الله. (طالبة تائبة).
- وختاما؛ أقول لكل فتاة متبرجة.. أنسيت أم جهلت أن الله مطلع عليك؟! أنسيت أم جهلت أم تجاهلت أن جمال المرأة الحقيقي في حجابها وحيائها وسترها؟! (فتاة تائبة).
- كما أصبحت بعد الالتزام أشعر بسعادة تغمر قلبي فأقول: بأنه يستحيل أن يكون هناك إنسان أقل مني التزاما أن يكون أسعد مني.. ولو كانت الدنيا كلها بين عينيه.. ولو كان من أغنى الناس.. فأكثر ما ساعدني على الثبات ـ بعد توفيق الله ـ هو إلقائي للدروس في المصلى، بالإضافة الى قراءتي عن الجنة بأن فيها ما لا عين رأت .. ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.. من اللباس والزينة.. والأسواق والزيارات بين الناس.. وهذه من أحب الأشياء الي قلبي.. فكنت كلما أردت أن أشتري شيئا من الملابس التي تزيد عن حاجتي أقول: ألبسها في الآخرة أفضل.
(فتاة انتقلت من عالم الأزياء الى كتب العلم والعقيدة).
- وقد خرجت من حياة الفسق والمجون .. الى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار. (رجل تاب بعد موت صاحبه).
- وانتهيت الى يقين جازم حاسم.. أنه لا صلاح لهذه الأرض.. ولا راحة لهذه البشرية.. ولاطمأنينة لهذا الانسان.. ولا رفعة، ولا بركة، ولا طهارة.. إلا بالرجوع الى الله.. واليوم أتساءل.. كيف كنت سأقابل ربي لو لم يهدني؟!!!! (طالبة تائبة).

- بدأ عقلي يفكر وقلبي ينبض وكل جوارحي تناديني: اقتل الشيطان والهوى.. وبدأت حياتي تتغير.. وهيئتي تتبدل.. وبدأت أسير على طريق الخير.. وأسأل الله أن يحسن ختامي وختامكم أجمعين..

(شاب تاب بعد سماعه لقراءة لبشيخ علي جابر ودعائه).

- إذا علم هذا.. فاعلم أن حاجة العبد الى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا في محبته.. ولا في خوفه.. ولا في رجائه.. ولا في الحلف به.. ولا في التوكل عليه.. ولا في العمل له.. ولا في الحلف به.. ولا في النذر له.. ولا في الخضوع له.. ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب.. أعظم من جاجة الجسد الى روحه.. والعين الى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.. فإن حقيقة العبد روحه وقلبه.. ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو.. فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره.. وهي كادحة اليه كدحا فملاقيته، ولا بد من لقائه.. ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له.. ورضاه وإكرامه لها..

ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل .. لم يدم له ذلك.. بل ينتقل من نوع الى نوع.. ومن شخص الى شخص.. ويتنعم بهذا في وقت .. ثم يعذب به ولا بد في وقت آخر.

وكثيرا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويتلذذ به غير منعّم له ولا ملذ.. بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك.. وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه.. فهي تدمي الجلد وتخرقه.. وتزيد في ضرره.. وهو يؤثر ذلك لما في حكها من اللذة..

وهذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب.. والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما..

والله الموفق المعين وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة. " طريق الهجرتين" إبن القيم ص ٧٧.

إخوتاه.. إن الجزاء من جنس العمل.. والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبتك.. فإذا تبت أعقبك سعادة عظيمة.. جزاء منهلك على توبتك.. ففي الحدث المشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لله أشد فرحا بتوبة عبد مؤمن كم رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع الى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى اموت، فوضع رأسه على ساعده ايموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده". دوية: أي بريّة لا نابت فيها. أخرجه البخاري (٦٣٠٨) كتاب الدعوات باب الدعوة. ومسلم (٢٧٤٤) كتاب التوبة.

إنني أريدك ألا تمر على هذا الحديث كونك عرفته أو سمعته كثيرا.. يجب أن تتوقف معه لتتأمل المعنى كأنك تسمعه لأول مرة.. كيف بلغ به الفرح حتى يخطئ فيقول: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؟!.. كم كانت فرحته عندئذ فأخطأ.. بكم تقدّر.. إنها لا تقدّر.. إنها أعظم من أن توصف.. وهذا دليل على أن حب الله للعبد أشد من حب العبد لله.. انتبه.. ففي طي هذه الكلمات من المعاني ما لا تحيط به الألفاظ.. إن الله يحبه فيفرح بتوبته.. والجزاء من جنس العمل..

تأمل ـ أخي التائب ـ فالله يفرح لأنك تبت.. فيجازيك بأن يفرحك ويسعدك.. وإذا أردت شاهدا لهذا فانظر الى الفرحة التي يجدها التائب توبة نصوحا.. والسرور واللذة التي تحصل له.. فإنه لما تاب الى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما.. لذلك.. فإنك تجد التائب في منتهى السعادة.. في قمة الراحة.. في أعظم النشوة.. هذا عن التائب توبة نصوحا.

أما التائب بمجرد الكلام فهذا شيء آخر.. ليس عليه مدار الحديث هنا.. بالله عليك هل وجد أسعد حالا وأقرّ عينا من عبد لله لم يتعلق قلبه إلا بالله؟!.. يقوم الليل فيصلي ويناجي ربه.. ثم يصبح فيدخل المسجد ويجلس ليذكر ربه.. ثم يعود فينام هنيئا يتعبد بنومه يرجو الثواب بالنوم.. يقول ـ كمعاذ ـ أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي فأحتسب قومتي كما أحتسب نومتي". أخرجه البخاري (٤٣٤٢)، (٤٣٤٥) كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ الى اليمن قبل حجة الوداع.

أهذا أمّن ليس في قلبه سوى المرأة والمال.. السيارة والعمارة.. الجار والجارة.. الصديق والصديقة.. والعشيق والعشيقة؟!! أيهما أسعد يا ترى؟!.. تفكروا أيها العقلاء.. أيهما أسعد..؟! رجل يقول: إلهي.. ربي.. سيدي، فيقول الله له: لبيك عبدي.. أم رجل قد تعلق قلبه بإمرأة تسومه سوء العذاب.. أو مال يرغم أنفه في التراب.. أو بالمنصب فذاق بسببه الوبال.. من السعيد..؟!! من السعيد حقا..؟!!

إن السعيد حقا هو الطائع لله.

خامسا ـ الفرار من العذاب والوحشة والحجاب:

نادانا ربنا فقال:{ ففروا الى الله} [الذاريات: ٥٠].. إننا بالتوبة نفر الى الله نفر من الهوى.. نفر من المعاصي.. نفر من الذنوب.. نفر من الشيطان.. نفر من النفس الأمارة بالسوء.. نفر من الدنيا.. نفر من الشهوات.. نفر من المال.. نفر من الجاه.. ونفرّ من كل هذا الى الملك.. الملك الذي بيده مفاتيح خزائن كل هذا فإن رأى الخير أن يعطيك كل ما تشتهي.. أعطاك .. وإن رأى الخير لك منعك كما يمنع الطبيب المريض شرب الماء وهو عليه هين.. "" إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم سقيمه الماء وهو يحبه".

إننا بحاجة الى ان نقف على الحجب العشرة بين العاصي وبين الله.. فإن بين العاصي وبين الله عشرة حجب بعضها أكثف من بعض.. كل حجاب أغلظ من الذي يليه.. ولا سبيل للعبد للوصول الى الله إلا بتخطي تلك الحجب العشرة..

تأمل ـ حبيبي في الله ـ تأمل حين يكون بينك وبين الله عشرة من الحجب.. إنني عندما أفكر في هذا، أتذكر رجلا كان قد سجن يوما فأذن له بزيارة أهله.. فكان يراهم من وراء سلك.. من ورائه حديد.. من ورائه سلك.. ثم أهله.. فتساءلت ما الذي يمكن أن تراه من بعد ذلك..؟ ثم كيف يتكلم..؟ فإذا تكلم فماذا يقول..؟ وكيف يسمعون..؟!!

اللهم رحمتك نرجو فأدركنا بها.. إنك إذا تفكرت في حال ذلك الرجل رثيت له.. فكيف بك إذا كان بينك وبين الله عشرة من الحجب..؟!! لو أنها جدر من طين ما سمعت وما رأيت.. فقلت.. هذا والله هو السر في جفاء أهل عصرنا مع الله.. وقوع تلك الحجب بين الناس وبين الله..

اللهم أزل الحجب بيننا وبينك حتى نعرفك فنحبك.. نعم حجب عشرة كل منها أشد كثافة مما يليه وهي:

الحجب العشرة بين العبد وبين الله

الحجاب الأول: الجهل بالله:

ألا تعرف الله.. فمن عرف الله أحبه.. وما عرفه قط من لم يحبه..وما أحبه قط من لم يعرفه.. لذا كان أولياء الله هم أهل السنة قولا وفعلا.. هم طلبة العلم حقا.. هؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه.. لأنك كلما عرفت الله أكثر أحببته أكثر..

أنصت الى نداء شعيب ـ خطيب الأنبياء ـ لقومه وهو يقول: {واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه، إن ربي رحيم ودود} [هود ٩٠].

استمع الى قول ربك جل جلاله:{ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا} [مريم:٩٦].

إن أغلظ الحجب هو الجهل بـ الله وألا تعرفه.. فالمرء عدو ما جهل.. إن الذين لا يعرفون الله يعصونه.. من لا يعرفون الله يكرهونه.. من لا يعرفون الله يعبدون الشيطان من دونه.. ولذلك كان نداء الله بالعلم أولا:
{ فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين وللمؤمنات}[محمد: ١٩].

فالدواء: أن تعرف الله حق المعرفة.. فإذا عرفته معرفة حقيقية، عند ذلك تعيش حقيقة التوبة.

يقول ابن القيم:

إن للتوبة لأسرارا ولطائف.. وأسرار التوبة ثلاثة:

" أن ينظر الى الجناية التي قضاها الله عليه فيعرف مراد الله فيها إذا خلّا بينه وبين إتيانه.. فإن الله عز وجل إنما خلّى بين العبد والذنب لمعنيين، أحدهما: أن يعرف عزته في قضائه.. وبره في ستره.. وحلمه في إمهال راكبه.. وكرمه في قبول العذر منه وفضله في مغفرته..

لا بد أن تعرف أيها العبد ربك.. إلهك.. لتكشف الحجاب الأول حجاب الجهل.. تعلّم ارتباط الأمر والخلق.. الجزاء والوعد والوعيد.. تعلّم كل ذلك بمعرفة أسماء الله وصفاته.. تعلم أن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود.. فإن كل إسم وصفة مقتض لأثره، وموجبه متعلق به..

إن هذا المشهد يطلعك على رياض مونقة من المعارف والايمان..

من بعضها: أن يعرف العبد عزّة الله في قضائه.. أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء.. في واقعنا ترى إنسانا ينظر الى نفسه بعين الرضا والكمال.. يتعامل مع امرأة ويقول: إن هؤلاء الملتزمين ينظرون الى الآخرين بعين الازدراء.. ويظنون أن كل من تعامل مع امرأة لا يفكر إلا في شهوته.. ويتهمهم بالأمراض النفسية وضيق الأفق

وغيرها.. وتراه يردد مثل ذلك وهو دائم الاختلاط بالنساء كما يصنع بعض أصحاب المحلات ومديري الشركات.

يقولون: إن هذه الأمور لا تخطر ببال أحدهم.. وهذا من حسن ظنهم بأنفسهم.. وسوء ظنهم بالله الذي شرّع حجب النساء عن الرجال.. ومنع التعامل بينهم.. فيعاقبه الله سبحانه وهو العزيز الحكيم بان يقع في المحظور.. ثم من بعد يأتيك يبكي فيقول: وقعت في حب امرأة ممن أتعامل معهن وأنا أشعر بأنني أتمرّغ في الوحل.. فهنا تستشعر عزة الله في قضائه أنه العزيز الذي لا يغالب.. يستطيع ان يحوّل قلبك كيف شاء.. فتجد نفسك وأنت تسير محترزا.. محترسا محافظا.. مدقق النظر.. متأكدا من الصواب.. فإذا بقدمك تزل.. تقع في المعصية بعد المعصية تقول: ما الذي أسقطني هذه السقطة.. هل أنا ممن يرتكب مثل هذا الذنب القذر..؟! أنا أكذب مثل هذه الكذبة..؟! أنا يمكن أن أقع في اغتياب إنسان.. إن هذه ليست من أخلاقي ولا من طباعي.. لست أنا..

هذا لتعرف عزته في قضاءه.. إنه العزيز الذي لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأنه قلّب قلبه وصرّف إرادته على ما يشاء.. وحال بين العبد وقلبه.. بل وجعل العبد مريدا شائيا لما يريد الله ويشاء.. تعرف الله العزيز.. فإذا عرف العبد عز سيده.. ولاحظه بقلبه.. وتمكن شهود العز من قلبه كان الاشتغال بالذل وصدق اللجأ اليه هو نجاته.. اللهم نجنا وأنجي بنا يا رب..

ثم تعرف أن الكمال لله وحده.. وأن تعرف برّه في ستره ـ برّه الذي حلّ في ستره عليك حال ارتكابك للذنب.. فكم من عاص على نفس معصيتك فضح هو، وسترك الله.. فتتشاغل بالتوبة والشكر.. تنشغل بالشكر على الستر.. والتوبة من الذنب قبل أن يفعل بك ما فعل بغيرك..

ومنها: أن تشهد حلم الله.... تعرف حلمه في أنه أملهك ولو شاء لعاجلك بالعقوبة..

ومنها: أن تعرف كرم الله الكريم.. أن تعرف كرمه في أنك إذا تبت فاعتذرت قبل توبتك.. وأن اشهد الغفور ذو الفضل العظيم.. وهو يغفر لك بعد كل ما أسأت... فتكتمل معرفتك بأسماء الله.. الرحيم.. العزيز.. الغفور.. البر.. التواب.. الملك.. القاهر.. القادر.. البديع.. الودود.. اللطيف .. الحليم.. حين تعرف الله.. القريب.. الرقيب.. المقيت.. الحسيب.. التواب.. حين تعرف الله.. الجميل.. الماجد.. حين تعرف الله لا تملك إلا أن تحبه.. فينقشع الحجاب الأول.

الحجاب الثاني: البدعة:

فمن ابتدع حجب عن الله بدعته.. فتكون بدعته حجابا بينه وبين الله حتى يتخلص منها.. قال صلى الله عليه وسلم:" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" أخرجه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح. ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

وانظر الى قول الله جل جلاله في الكفار أنهم { لا تفتح لهم أبواب السماء} [الأعراف: ٤٠] لماذا؟!

هنا لطيفة من كلام سلفنا في قول الله عز وجل {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر:١٠].. فالمؤمن حين يعمل الأعمال الصالحة تخترق السماوات.. وتخترق الحجب.. تصعد الى الله كأنها تفتح في السماوات طريقا.. وتفتح أبوابا.. فإذا مات وصعدت روحه.. وجدت الأبواب مفتحة.. لأن الذي فتح الأبواب.. ومهّد الطرق.. وسبّل السبل.. هي أعماله.. التي تصعد من الصالحات والذكر .. أما إذا لم يكن له أعمال صالحة.. ظلت الأبواب مغلقة.. والطرق مؤصدة.. والسبل مسدودة.. فإذا مات جاءت روحه لتصعد.. غلّقت دونها أبواب السماء.. كما لم يفتح بعمله لنفسه سبيلا.. قال ربنا: { ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون} [الروم: ٤٤].

والعمل الصالح له شرطان:

الإخلاص: أن يكون لوجه الله وحده لا شريك له.
والمتابعة: أن يكون على سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

ودون هذين الشرطين لا يسمى صالحا.. فلا يصعد الى الله.. لأنه إنما يصعد اليه العمل الطيب الصالح.. فتكون البدعة حجابا تمنع وصول العمل الى الله.. وبالتالي تمنع وصول العبد.. فتكون حجابا بين العبد وبين الرب.. لأن المبتدع إنما عبد على هواه.. لا على مراد مولاه.. فهو حجاب بينه وبين الله.. من خلال ما ابتدع مما لم يشرّع الله.. فالعامل للصالحات يمهّد لنفسه.. اما المبتدع فإنه شر من المعاصي.

تنبيه:

رأيت بدعة جديدة في هذه الأيام.. وهو أن يطلق الرجل جزءا من اللحية.. ولا يعفيها بالكلية.. هذه بدعة شر من حلق اللحية.. لأن حالق اللحية عاص.. والذي يطلق هذا الجزء مبتدع.. لذلك نقول: إن المبتدع الذي يعبد الله على غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أعماله تكون حجابا بينه وبين الله.

الحجاب الثالث: الكبائر الباطنة:

وهي كثيرة كالخيلاء.. والفخر.. والكبر.. والحسد.. والعجب.. والرياء والغرور.. هذه الكبائر الباطنة أكبر من الكبائر الظاهرة.. أعظم من الزنا وشرب الخمر والسرقة.. هذه الكبائر الباطنة إذا وقعت في القلب.. كانت حجابا بين قلب العبد وقلب الرب.

ذلك أن الطريق الى الله إنما تقطع بالقلوب .. ولا تقطع بالأقدام.. والمعاصس القلبية قطاع الطريق.

يقول ابن القيّم:

وقد تستولي النفس على العمل الصالح.. فتصيرخ جندا لها.. فتصول به وتطغى.. فترى العبد أطوع ما يكون.. أزهد ما يكون.. وهو عن الله أبعد ما يكون.. فتأمل..!!

الحجاب الرابع : حجاب أهل الكبائر الظاهرة:

كالسرقة.. وشرب الخمر.. وسائر الكبائر..

إخوتاه.. ينبغي أن نفقه في هذا المقام.. أنه لا صغيرة مع الإصرار.. ولا كبيرة مع الاستغفار..والإصرار هو الثبات على المخالفة.. والعزم على المعاودة.. وقد تكن هناك معصية صغيرة فتكبر بعدة أشياء وهي ستة:

كيف تكبر الصغائر

أولا: الإصرار والمواظبة:

مثاله: رجل نظر الى النساء.. والعين تزني وزناها النظر.. لكن زنا النظر أصغر من زنا الفرج.. لكن.. مع الاصرار والمواظبة تصبح كبيرة..

إنه مصر على ألا يغض بصره وأن يواظب على إطلاق بصره في المحرمات.. فلا صغيرة مع الإصرار..

ثانيا: استصغار الذنب:

قلت لأحد المدخنين ـ ذات مرة ـ اتق الله.. أنت تعلم أن التدخين حرام.. ولقد كبرت سنك.. وفيك خصال عديدة لو تدبرتها لكان خيرا لك:

أولها: جاءك نذير الشيب ينذرك قرب لقاء ربك.
ثانيا: أنت ملتح.. فالناس تعتبرك قدوة وتعتبرك صورة الدين.
ثالثا: أنت فقير .. فلو تدبرت فيم تنفق ما يرزقك الله به.

إن هذه الأسباب كلها يجب أن تردعك عن التدخين..

فقال: هذه معصية صغيرة.. آه لو تدبرت قولك.. إن كونك تقول: هذه صغيرة فإنها تكون عند الله كبيرة.. بالضبط كما لو أخطأ ابنك خطئا.. فإذا قلت: عيب عليك يا ولدي.. قال لك: وما في ذلك.. وأي شيء يعني ذلك..؟! إنه خطأ صغير.. مستصغرا في ذلك من مخالفتك فيما تطلبه منه.. مستهينا بأمرك.. أفلا تغضب من صنيعه..؟! أفلا تتهمه بالجحود..؟! أفلا يكبر غضبك عليه..؟!

كذلك حين تعصي ثم تقول لله: وماذا في ذلك..؟! ما هي المشكلة..

فترى المدخن يقول: أنا أفضل حالا ممن يتعاطى هيروين.. ومن يدريك.. ربما لو أنك استطعت لكنت تعاطيت.. أحق أم لا..؟! أو ربما أنك ما تركت الهيروين لله.. وإنما خوفا على صحتك.. خوفا من أن تدمن ثم لا تجد مالا تشتري به المخدر.. ربما لغلو سعر المخدر.. وربما لكيلا يتندر الناس أنك لا تحتمله.. أو خوفا من الفضيحة لنفسك أو لأهلك.. أليس ذلك كله ممكنا.. وإنما عليك أن تفهم.. أنك لو كنت صادقا في ترك الهيروين ابتغاء مرضاة الله.. لكان من الأولى تركك التدخين.. وأن تصدق مع الله الذي يعلم السر وأخفى.. فإنه إن علم منك صدقا أنجاك.. وإن علم منك غير ذلك ابتلاك بما تفخر بأنك تركته من أجله..

ثالثا: السرور بالذنب:

إنك ترى المرء يذنب ويسعد بالذنب.. لا يتقطع قلبه.. ولا تذهب نفسه حسرات أن خلّى الله بينه وبين الذنب.. بل تراه يفاخر بسوء صنيعه.. يفاخر بمبارزته لله بالمعاصي..

والله إن هذا السرور بالذنب لأكبر من الذنب.. فبم تسر .. أتسر بأنك قد شهرت بأخيك وفضحته وتتبعت عورته.. أتسر بانتصارك لنفسك من اخيك..؟! أتسر بان شفيت نفسه بقتاله..؟! ألم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".. أخرجه البخاري (٤٨) باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله، ومسلم (٤) كتاب الايمان.

أتفرح بغواية فتاة شريفة.. أتفرح إن شهرت بها.. ؟! ألم تتدبر قول الله سبحانه وتعالى: { إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم} [النور: ١٨].

نعم؛ انتبه.. إن سرورك بالذنب أعظم من الذنب..

فمثلا قد يقوم أحدهم بعمل خطة لأكل أموال الناس بالباطل.. خطة محكمة مدبرة.. يجمع كل قرش من أموال الناس.. ثم يقول: لقد أخذت كل أموالهم.. سرورك بالذنب أعظم من ذنبك.. وترى أحدهم يكذب.. لينجو من مصيبة ثم يقول الحمد لله على ما اقترفه.. (بالكذب).. اتق الله.. واعلم يقينا أن الذنب يكبر عند السرور به.

رابعا: أن يتهاون بستر الله عليه:

اللهم استرنا ولا تفضحنا.. ادم علينا يا رب سترك وعافيتك.. اشملنا يا رب بسترك الجميل.. واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا..

والله لولا ستر الله علينا لما زل لسان بذكر خير أبدا.. والله لولا ستر الله علينا لبصق الناس علينا..

إذا رأيت الناس يبعجبون بك.. فاعلم أنهم يعجبون بستر الله عليك.. لكن لو اطلعوا على حقيقتك.. آه لو اطلعوا على ما تحت ستر الله.. أخشى أن أقول إنهم قد يضربونك بالنعال.. فالحمد لله...

نعم.. إن الذي يتهاون بستر الله عليه فإنه جاهل مغرور.. لا يعرف قيمة ما أنعم الله عليه به.. وقد يستبطئ غضبه.. وفضيحته..

أرأيت الرجل الذي أراد أن يزني بإمرأة فقال لها: ما عاد يرانا إلا الكواكب.. فقالت: فأين مكوكبها..؟!!

ورجل قال لامرأة حين خلي بها: أغلقت كل الأبواب..؟؟ فقالت: نعم أغلقتها جميعا.. إلا الباب الذي بيننا وبين الله.. فهذا لا ينغلق..

وفي معنى الاستهانة بستر الله يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:" يا صاحب الذنب، لا تأمن سوء عاقبته.. ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته.. قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال ـ وأنت على الذنب ـ أعظم من الذنب.. وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب.. وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب.. وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب.. وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك ـ وأنت على الذنب ـ ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب.."

كيف لا يوجل قلبك من الله ويوجل أن يراك البشر في معصية..؟! هذا والله لظلم عظيم.. واعلم أن التهاون بستر الله أكبر من الذنوب لكونه يكاد يكون شركا..

خامسا: المجاهرة:

أن يبيت الرجل يعصي.. والله يستره.. فيصبح ليحدث بالذنب.. ويهتك ستر الله عليه.. تراه يأتي فيحدث بما فعل وفعل.. فالله يستره وهو يهتك ستر الله عليه.

قال صلى الله عليه وسلم: " كل أمتي معافى إلا المجاهرين.. وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا.. وقد بات يستره ربه ويكشف ستر الله عنه". البخاري (٦٠٦٩) كتاب الأدب. ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

سادسا: أن يكون رأسا يقتدى به:

فهذا مدير مصنع.. أو مدير مدرسة.. أو في كلية.. أو شخصية عامة.. ثم يبدأ في التدخين.. فيبدأ باقي المجموعة في التدخين مثله.. ثم بعدها يتحول الى المخدر.. فيحذو الآخرين حذوه..

وهكذا..

فتاة قد تبدأ في لبس البنطلون الضيق [استريتش].. يتحول بعدها الموضوع الى اتجاه عام..

حتى إن هذه الظواهر قد انتشرت في مجتمع الملتزمين.. فقد تجد إنسانا يقابل أختا واقفة على الطريق.. فيعرض خدماته عليها.. مالك بها..؟ لماذا تعرض خدماتك عليها..؟ إن ما فعلته ولو فرضنا أنه كان بنيّة حسنة فإنه قد يفتح بابا للشيطان.. وقد تحوّل الى سنة في الإخوة.. وتكون أنت من سنّ هذه السنة وكنت مثلا يقتدى به.

وعندها ينطبق عليك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من سنّ في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزراهم شيء" أخرجه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

الحجاب الخامس: حجاب أهل الصغائر:

وكما ذكرنا إن الصغائر تعظم.. وكم من صغيرة أدت بصاحبها الى سوء الخاتمة.. والعياذ بالله.

فالمؤمن هو المعظم لجنايته يرى ذنبه ـ مهما صغر ـ كبيرا لأنه يراقب الله.. كما أنه لا يحقر من المعروف شيئا لأنه يرى فيه منّة الله وفضله.. فيظل بين هاتين المنزلتين حتى ينخلع من قلبه استصغار الذنب واحتقار الطاعة.. فيقبل على ربّه الغفور الرحيم التواب المنان المنعم فيتوب اليه فينقشع عنه هذا الحجاب.

الحجاب السادس: حجاب الشرك:

وهذا من أعظم الحجب وأغلظها وأكثفها.. وقطعه وإزالته تكون بتجريد التوحيد.. وإنما المعنى الأصلي الحقيقي للشرك هو تعلق القلب بغير الله سبحانه وتعالى.. سواء في العبادة.. أو في المحبة.. سواء في المعاني القلبية... أو في الأعمال الظاهرة.. والشرك بغيض الى الله تعالى.. فليس ثمة شيء أبغض الى الله تعالى من الشرك والمشركين.

والشرك أنواع.. ومن أخطر أنواع الشرك "الشرك الخفي"..

وذلك لعدم معرفة العبد به وقد يظن في نفسه الصلاح والتقى والهدى.. وأنه إنما يعبد الله وحده.. وأنه إنما يتقرب اليه بالطاعات.. ويتحب اليه بالنوافل.. ولا يعلم أنه يشرك به من حيث لا يدري.

وقد تبدو لك خطورة هذا النوع من أنواع الشرك إذا تدبرت قول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:{ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون* ثم لك تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين* انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون} [الأنعام: ٢٢-٢٤] .

فجاهد أخي في تجريد التوحيد.. سل الله العافية من الشرك.. واستعذ بالله منه.. وقل في كل وقت.."اللهم إني أعوذ بك أن أشرك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه".

هنا يزول الحجاب.. مع الاستعانة.. والإخلاص.. وصدق اللجأ الى الله.

حجاب الشرك.. معناه أن يتعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى.. وكون أن مجرد تعلق القلب بغير الله شركا.. وما هو المعنى من وراء هذه الكلمات القليلة المجملة..؟

إن هذه المسألة ـ رغم أهميتها الكبرى ـ تحتاج الى كبير بسط وطويل طرح وإشهاب ليس هذا محله.. ولن يكفي لشرحها مجرد التعرض لها في سطور قليلة فلتراجع في مواضعها.

وإن كنا ننوه إليها في كلمات قليلة، فنقول.. إن مجرد تعلق قلبك بولدك.. أو بمالك من أي نوع كان.. بدابتك (سيارتك).. أو بمركز اجتماعي معين..

أن يتعلق قلبك بشخص تحبه وتعظمه وتطيعه بأكثر مما تطيع الله.. وفي معصية الله.. أو أن تقدم أوامره مخالفة لأمر الله [هذا ـ لعمر الله ـ معنى أن يتعلق به قلبك]..

الحجاب السابع: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحث:

أنا أريدك أن تتدبر السطور التالية بقلبك حتى تفهم مرادي ولتعلم أني بك مشفق وعليك حريص فتدبر ما أقول.. ولا تظن أني بهذا أحرم حلالا.. حاشا لله.. ولكن حقا وصدقا قد يكون حجاب أحدنا بينه وبين الله بطنه.. إن الأكل حلال.. والشرب حلال.. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ما ملأ آدمي وعاء شرّا من بطنه" أخرجه الترمذي (٣٣٨٠) كتاب الزهد، فإن المعدة إذا امتلأت.. نامت الفكرة.. وقعدت الجوارح عن الخدمة..

وإن الحجاب الذي قد يكون بين العبد وبين الله ملابسه.. فقد يعشق المظاهر.. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة" أخرجه البخاري (٢٨٨٧) كتاب الجهاد والسير. تقول له: قصّر ثوبك قليلا.. حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار" أخرجه البخاي(٥٧٨٧) كتاب

اللباس. يقول أنا أخجل من لبس القميص القصير..ولماذا أصنع ذلك؟ هل تراني لا أجد قوت يومي..؟! إن الصحابة كانوا فقراء.. فبدلا من أن يكون قميص أحدهم طويلا.. فيقصر أحدهم ثوبه مقدار عشرة سنتيمترات ويتصدق.. من أجل أن يحصل الثاني على ثوب.. كذب ورب الكعبة .. من يدرس السيرة ويعرف حالة المجتمع .. يتفطن الى أنهم لم يكونوا على تلك الحال لا يجدون القوت.. بالعكس.. لو أرادوا أن يأكلوا الذهب لأكلوه.. لكنهم كانوا يريدون الله والدار الآخرة..

انتبه الى هذا.. فالمقصود أن هذه الأعراف.. والعادات.. والفضلات.. والمباحات.. قد تكون حجابا بين العبد وبين ربه.. قد تكون كثرة النوم حجابا بين العبد وبين الله.. النوم مباح.. لكن.. أن تنام فلا تقوم الليل.. ولا تصلي الصبح.. أو يصلي الصبح ثم ينام الى العصر فيضيع الظهر.. هكذا يكون النوم حجابا بين العبد وبين الله.. قد يكون الزواج وتعلق القلب به حجاب بين العبد وبين الله.. وهكذا الاهتمام بالمباحات والمبالغة في ذلك.. وشغل القلب الدائم بها... قد يكون حجابا غليظا يقطعه عن الله.

نسأل الله عز وجل ألا يجعل بيننا وبينه حجابا..

الحجاب الثامن: حجاب أهل الغفلة عن الله:

والغفلة تستحكم في القلب حين يفارق محبوبه جل وعلا.. فيتبع المرء هواه.. ويوالي الشيطان.. وينسى الله.. قال الله تعالى: { ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا} [الكهف: ٢٨].. ولا ينكشف حجاب الغفلة عنه إلا بالانزعاج الناشئ عن انبعاث ثلاثة أنوار في القلب:

(١) نور ملاحظة نعمة الله تعالى في السر والعلن.. حتى يغمر القلب محبته جل جلاله.. فإن القلوب فطرت على حب من أحسن اليها..

(٢) نور مطالعة جناية النفس.. حتى يوقن بحقارتها.. وتسببها في هلاكه.. فيعرف نفسه بالازدراء والنقص.. ويعرفربه بصفات الجمال والكمال.. فيذل نفسه لله.. ويحمل على نفسه عبادة الله.. لشكره وطلب رضاه.

(٣) نور الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام.. فيدرك أن عمره رأس ماله.. فيشمر عن ساعد الجد حتى يتدارك ما فاته في بقية عمره..

فيظل ملاحظا لذلك كله.. فينزعج القلب.. ويورثه ذلك يقظة تصيح بقلبه الراقد الوسنان .. فيهب لطاعة الله.. سبحانه وتعالى.. فينكشف هذا الحجاب.. ويدخل نور الله قلب العبد .. فيستضيء.

الحجاب التاسع: حجاب العادات والتقاليد والأعراف:

إن من الناس عبيد للعادة.. تسله: لم تدخن..؟! يقول: عادة سيئة.. أنا لا أستمتع بالسيجارة.. ولا ضروري عندي اليها.. إنما عندما أغضب فإني أشعل السيجارة.. وبعد قليل أجد أني قد استرحت...

ولما صار عبد السيجارة .. صارت حجابا بينه وبين الله.. ولذلك أول سبيل للوصول الى الله خلع العادات.. ألا تصير لك عادة.. فالإنسان عبد عاته.. ولكي تصل الى الله فلا بد أن تصير حرّا من العبودية لغير الله..

قال شيخ الاسلام ابن تيمية:

" ولا تصح عبوديته ما دام لغير الله فيه بقية".. فلا بد أن تصير خالصا لله حتى يقبلك..

الحجاب العاشر: حجاب المجتهدين المنصرفين عن السير الى المقصود:

وهذا حجاب الملتزمين... أن يرى المرء عمله.. فيكون عمله حجابا بينه وبين الله.. فمن الواجب ألا يرى عمله.. وإنما يسير بين مطالعة المنة.. ومشاهدة عيب النفس والعمل.. يطالع منة الله وفضله عليه أن وفقه وأعانه.. ويبحث في عمله.. وكيف أنه لم يؤده على الوجه المطلوب .. بل شابه من الآفات ما يمنع قبوله عند الله.. فيجتهد في السير.. وإلا فتعلق القلب بالعمل.. ورضاه عنه.. وانشغاله به عن لمعبود.. حجاب..

فإن رضا العبد بطاعته.. دليل على حسن ظنه بنفسه.. وجهله بحقيقة العبودية.. وعدم علمه بما يستحقه الرب جل جلاله.. ويليق ان يعامل به.. وحاصل ذلك أن جهله لنفسه وصفاتها وآفاتها.. وبعيوب عمله.. وجهله بربه وحقوقه.. وما ينبغي أن يعامل به.. يتولد من ذلك العجب والكبر والآفات.. فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

ولله درّ من قال: متى رضيت نفسك وعملك لله فاعلم أنه غير راض به.. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر.. وعمله عرضة لكل آفة ونقص.. كيف يرضى لله نفسه وعمله..؟!

وكلما عظم الله في قلبك.. صغرت نفسك عندك.. وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيل رضاه.. وكلما شهدت حقيقة الربوبية.. وحقيقة العبودية.. وعرفت الله.. وعرفت النفس.. تبين لك أن ما معك من البضاعة.. لا يصلح للملك الحق.. ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته.. وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله.

فحينها تتبرأ من الحول والقوة.. وتفهم أن لا حول ولا قوة إلا بالله فينقشع هذا الحجاب .

هذه هي الحجب العشرة بين العبد وبين الله.. كل حجاب منهما أكبر وأشد كثافة من الذي قبله..

أرأيت يا عبد الله كم حجاب يفصلك اليوم عن ربك سبحانه وتعالى.. وقل لي ربك.. كيف يمكنك الخلاص منها..؟!

فاصدق الله.. واصدق في اللجإ اليه.. لكي يزيل الحجب بينك وبينه.. فإنه لا ينسف هذه الحجب إلا الله .

يقول ابن القيّم:

فهذه عشرة حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى.. تحول بينه وبين السير الى الله.. وهذه الحجب تنشأ عن أربعة عناصر.. أربعة مسميات هي: النفس.. الشيطان.. الدنيا.. الهوى..

فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.. لا بد من نزع تلك الأربعة لكي تنزع الحجب التي بينك وبين الله..

إن هذه العناصر الأربعة تفسد القول والعمل.. تفسد القصد والطريق.. بحسب قلتها وغلبتها.. فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل العمل الى القلب..

إن هذه العناصر الأربعة سوف تحاول أن تحول بين وصول هذه التوبة الى القلب.. ستقطع الطريق الى القلب.. وما وصل منها الى القلب قطعت عليه الطريق الى الرب.. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة.. يسافر فيها العبد الى قلبه ليرى عجائب ما هنالك.. وفي هذه المسافة قطاع طرق.. النفس.. الشيطان.. الدنيا.. الهوى.

يمنعون وصول العمل الى القلب.. فإن حاربهم وانتصر عليهم.. فخلص العمل الى قلبك.. دار فيه فلا يستقر دون الوصول الى الله..{ وأنّ الى ربك المنتهى} [النجم: ٤٢]. فإذا وصل العمل الى الله أثاب الله العبد مزيدا من الايمان واليقين والمعرفة والتقوى.. قال تعالى:{ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} [محمد: ١٧]. فكلما اهتدى العبد زاده الله هدى.. وكلما زاد هدى زاد تقوى.. وهكذا.. يظل من زيادة الى زيادة.. فإذا وصل العمل الى الله.. أثابه عليه مزيدا في إيمانه ويقينه ومعرفته وتقواه.. وجمل به ظاهره وباطنه.. فهداه الله به لأحسن الأعمال والأقوال.. وأقام الله من ذلك العمل للقلب جندا.. يحارب به قطاع الطريق للوصول اليه.. فيحارب العبد بالله الدنيا.. بالزهد فيها.. اللهم اقذف في قلوبنا الزهد في الدنيا.. يزهد فيها فيخرجها الله من قلبه.. ولا يضره أن تكون في يده أو في بيته.. فهذه ليست المشكلة.. أن يكون لديه الملايين فتلك ليست المشكلة..

إن القضية أن لا تكون الدنيا في قلبه.. إنما الذي في قلبه هو حب الله وحده.. ولا يمنع ذلك من قوة يقينه في الآخرة.. يحارب الدنيا بالزهد فيها.. ويحارب الشيطان بالاستعانة بالله.. ودائما نقول: إن الشيطان لابن آدم كالذئب للغنم يأكلها.. فكذلك الشيطان يأكلك.. فإذا كنت

تسير في طريق ونبحتك كلاب الراعي.. فماذا تصنع؟ تقول: أدافعه.. إن دافعته عاد يجري وراءك.. ثم تدافعه فيعود ويجري خلفك.. وهكذا.. فما الحل؟ . استعن بالراعي .. يكفيك كلابه.. ناد على الراعي.. عندها ينادي كلبه.. وتنتهي القضية.. فكذلك استعن بالله يكفك شر الشيطان..

قال تعالى: { إن الذين إتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} [الأعراف:٢٠١].

وقال تعالى: { وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم} [فصلت: ٣٦].

فتحارب الشيطان بالاستعانة بالله.. وتحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق.. بحيث لا يبقى لك هوى فيما تفعل.. تحارب الهوى بمخالفة الهوى..

وتحارب النفس بقوة الاخلاص..
وتحارب الدنيا بالزهد فيها..

فإذا انتصرت على هذه الأربعة بعد حربها وصل العمل الى القلب أما إذا لم يجد العمل منفذا الى القلب.. كأن لا يصل العمل الى القلب.. وبالتالي لا يصل الى الرب.. فعند ذلك ماذا يحدث؟!

إذا لم يجد العمل منفذا.. وثبت عليه النفس.. فأخذته وصيّرته جندا لها.. فصالت به وجالت.. وعلت وطغت.. فتراه أزهد ما يكون.. أعبد ما يكون.. أشد ما يكون اجتهادا.. وهو عن الله أبعد ما يكون.. فتراه يقوم الله ثم يصبح فيزني.. يصوم النهار.. ثم يسهر ليسكر.. يقرأ القرآن ولا يستطيع أن يترك التدخين.. يذكر الله ومع ذلك يعصي مولاه.. فلماذا؟؟ لماذا؟؟

لأنه حين عمل العمل لم يصل العمل الى قلبه..

إنه سؤال حثيث ومشكلة ملحة.. كثير من شبابنا يعاني منها.. أن يطيع ويعصي.. يتساءل أين أثر الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.. ؟ الذكر الذي يطرد الشيطان..؟!

والجواب: أنه حين عمل العمل لم يصل العمل الى قلبه.. فمثلا في حضور مجالس العلم تجد بعضهم يجلس حاضر القلب.. مخبتا لله.. خاشعا.. عينه تكاد تدمع.. يحس بالسكينة.. وأول شيء يفعله بعد الخروج من المسجد أن ينظر الى امرأة متبرجة.. فما السبب..؟؟

الجواب: لأن ما سمعه من الكلام مر على ظاهر القلب فكان تأثيره وقتيا.. فعندما هجم عليه الهوى.. نسي فعصى..

حينذاك ينسى كل ما كان.. فلا بد أن يجد الكلام منفذا الى القلب..

فاللهم بلّغ الخير قلوبنا.. وأدم على قلوبنا الخير يا رب..

نعم يجب أن يثقب الكلام قلبك.. كما قال أحد الشباب.. كلام مثل الرصاص في قلوب مثل النحاس.. إننا نريد قلوبنا تقية نقية.. خاشعة حاضرة.. تتأثر فتتغير.. قال تعالى:
{إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} [الأنفال:٢-٤].

نريد لهذا الكلام أن يصل الى القلب فينفذ اليه.. فإذا نفذ الى القلب دار فيه.. فوصل الى الرب سبحانه وتعالى.. فرضي الله عنك.. فأخذ بناصيتك وقلبك إليه..

اللهم خذ بأيدينا ونواصينا اليك.. أخذ الكرام عليك..

أما الآخر فتراه حفظ القرآن.. ومع حفظ القرآن لم يستطع الكف عن الاستمناء.. لأن النفس استولت على هذا الحفظ فصيّرته جندا لها.. فافتخر قائلا: أنا فلان..

افتخار.. كبر.. غرور... عجب.. رضا عن نفس.. احتقار للآخرين.. فيصير العمل وهو جند القلب من جند النفس.

يقول ابن القيّم:

فتراه أعبد ما يكون.. أزهد ما يكون.. أشد اجتهادا ما يكون.. وهو عن الله أبعد ما يكون.. وأصحاب الكبائر الظاهرة أقرب قلوبا الى الله وأجنى الى الإخلاص والخلاص منه..

فانظر الى السّجّاد الزاهد العبّاد.. الذي بين عينيه أثر السجود.. كيف أورثه طغيان عمله أن أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم..

قال النبي صلى الله عليه وسلم:" يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" أخرجه البخاري (٤٣٥١) كتاب المغازي ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة.

ذو الخويصرة التميمي لما كان عبدا زاهدا سجّادا عبّادا.. علامة الصلاة في وجهه.. ومع ذلك قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:" اتق الله واعدل فهذه القسمة لم يرد بها وجه الله" لأنه رأى نفسه...

انظر الى هذا العبّاد الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود كيف أورثه هذا طغيان عمله أن أنكر على النبي صلى الله عليه وسلم وأورث أصحابه احتقار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلّوا عليهم سيوفهم واستباحوا دمائهم..

وانظر في المقابل الى السّكّير الذي كان كثيرا ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فيقيم عليه الحد على الشراب.. كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ومحبته لله وتواضعه وإنكساره حتى نهى رسول الله عن لعنه..؟!

من هنا نفهم أن طغيان المعاصي أسلم من عاقبة طغيان الطاعات..

إخوتاه.. كانت كل تلك مقدمات بين يدي سؤالنا..

كيف نتوب؟!

يا من أبعدته الخطايا عنهم.. إذا أردت لحاقهم

فهذه وصيتي:

لابد والله من قلق وحرقة
إما في زاوية التعبد.. وإما في هاوية الطرد
إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير
والشوق الى لقاء الحبيب..
وإلا فنار جهنم أشد حرا..
القلق.. القلق يا من سلب قلبه..
البكاء.. البكاء يا من عظم ذنبه..

كيف نتوب؟؟

إخوتي .. تعالوا الى التوبة ندق بابها.. ونستفتح مغاليقها..

أولا: حقيقة التوبة:

هي الرجوع الى الله.. ولا يصح الرجوع ولا يتم إلا بمعرفة الرب.. كما ذكرناه من قبل.. بمعرفة أسمائه وصفاته.. وآثاره في النفس.. ولا يصح الرجوع إلا بأن تعرف أنك كنت فارّا من الله... أسيرا في قبضة دوك.. أن تعرف إنك لكي تتوب.. فلا بد لك من اليقين.. اليقين بأنك ما وقعت في مخالب عدوك إلا بسبب جهلك بربك.. وجرأتك عليه..

لا بد للتائب أن يعرف كيف جهل ومتى جهل..
لا بد للتائب أن يعلم كيف وقع أسيرا ومتى وقع..
لا بد للتائب أن يؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة.. تحتاج الى مجهود كبير.. ويقظة تامة.. للتخلص من العدو.. والرجوع والفرار الى الرب.. الرحمن الرحيم.. والعودة من طريق الهلاك الذي أخذه اليه عدوه..
لا بد أن تعرف أيها التائب.. مقدار الخطوات التي قطعتها بعيدا عن الله.. وتعود اليه بعددها..

لا بد أن تعرف المجهود والعقبات التي لا بد لك من اقتحامها للعودة الى الصراط المستقيم..

لا بد أن تعرف أيها التائب.. انك إنما أوتيت من قبل نفسك.. وبسبب متابعتك لهواك..

لا بد أن تعرف أيها التائب.. إنك أوتيت من قبل غفلتك عن الله.. وعدم اعتصامك بحبله..

ولا بد أن تعرف أيها التائب.. إنك إنما أتيت من قبل حسن ظنك بنفسك.. وعدم توبيخك لها عندما تأمرك بالسوء.. عندما استأسدت عليك ولم تردعها.. فظننت أن مكانك عند الله سبحانه وتعالى حال لمعصية.. هو حالك وأنت على الطاعة.. ولم تدر ساعتها هل يؤاخذ الحبيب بما لا يؤاخذ به غيره.. أم أنه يسامح بما لم يسامح فيه غيره..

إنّ من يدخن ويظن أن السيجارة تهدئ أعصابه.. يدخله حسن الظن بالسيجارة وتنسيه نفسه أنه إذا أمسك المصحف فإنّ أعصابه.. وقلبه.. وشيطانه.. وكل ما فيه يهدأ.. تنسيه أن يذكر الله.. فإذا ذكر الله عصمه من شيطان غضبه. وأدخله في حصنه.. وذكره فيمن عنده.. فإذا نسي.. عندها يكله الله الى نفسه فتسوء خاتمته..

لا بد أن تعرف يقينا بأن الله عندما وكلك لنفسك.. فهذا يسبب سقوطك من عينه فهل تقوى على أن تسقط من عين الله..

أخي التائب.. إذا تبين لك ذلك.. وعرفت أنه في طاعة نفسك عطبك وهلاكك يوم ميعادك.. وان في عصيانها نجاتك في آخرتك..

إذا عرفت أن نفسك قد اعتادت سلوك طريق هلكتها.. وألفت طول النفور والاشمئزاز عما يرضي ربك ومولاك..

فاتحة التوبة؟؟

لا بد أن تعلم أن أول الطريق.. أن تقف مع نفسك وقفة.. بل وقفات.. بأن يعزم على تأديبها.. وتأديب النفس أنما يكون بسبعة أمور:

أولا: الوعظ والتذكير:

ألزم قلبك العزم على تأديب نفسك.. والمواظبة على توفيقها.. والإلحاح على معاتبتها.. والدوام على موعظتها وتذكيرها.. كرر على نفسك الخطر الذي هي عليه.. وانها لا بد من المصير الى مولاها.. وأنها ستموت حتما.. وقد يكون الآن..

تعود لمخاطبة نفسك ما بينك وبينها.. ذكرها.. ناد عليها.. خاطبها.. ناجها.. ازجرها.. انهها..

قل لها: يا نفس توبي قبل أن تموتي.. فإن الموت ياتي فجأة.. ذكرها بالأصحاب مات فلان وفلان.. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهو من هو بأبي هو وأمي ونفسي.. فهل لك بعد ذلك من نجاة..؟!

يا نفس سترين كل أعمالك يوم القيامة حاضرة:{ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويحذّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد} [آل عمران:٣٠] { إنّا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا} [النبأ: ٤٠] {ووجدوا ما عملوا حاضرا} [الكهف:٤٩].

يا نفس صبر ساعة.. ولا عذاب الأبد.. يا نفس هبّي الى الجد.. فإن قالت لك: في آخر العمر أتوب ـ وكثير من الشباب يقول: دعنا نستمتع بالشباب حتى إذا بلغنا المشيب تبنا كما تبتم ـ ولكن ـ اخي ـ ما يدريك أنك ستعيش.. من يعلم متى تموت.. ألديك صك بان تبلغ سن المشيب.. ألديك وعد بانك ستعيش وتبلغ من العمر ما بلغ أبوك وجدك..

وإني ساءلك فمشدد عليك.. هب أن الجد في آخر العمر نافع.. وأنه موصل الى الدرجات العلى من الجنة... أليس قد يكون اليوم آخر عمرك.. فماذا أنت فاعل إذا مت الآن.. وماذا أنت فاعل بين يدي الله غدا...

وإذا هداك الله من الآن وعمّرت كما عمّروا ألست تكون أفضل الجميع منزلة وقربا من النبي المصطفى.. ألا بد أن تصحب الشيطان حينا.. وما يدريك أنك ستستطيع التخلص من حبائله إذا بلغت من العمر أرذله..

ناج نفسك وقل لها: لم لا تشتغلين أيتها النفس بالإصلاح.. من ذا الذي أغراك بالإهمال إلا عدوك وعدوي.. يبغي ان كبنا على وجوهنا في النار.. وما يمنعك من الكبادة يا نفس.. ما باعثك على التسويف وحجتك في التأجيل.. أو ليس هذا إلا بسبب عجزك عن مخالفة شهواتك.. لما تظنين في المخالفة من التعب والمشقة..

خوّف نفسك فقل لها.. يا نفس.. هل تنتظرين يوما يأتيك تستطيعين فيه مخالفة الشهوات..؟! أومعقول هذا..؟! أن يأتي يوم فيجدك وقد عفت الشهوات.. يجدك قادرة على مخالفة الشهوات.. يا نفس ما تخدعين إلا نفسك..

إنّ هذا يوم لا يخلقه الله قط..

لا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره.. ولا تكون النار إلا محفوفة بالشهوات.. ولن تكون المكاره قط سهلة ميسورة عليك.. ولن تزهدي أبدا في الملذات والشهوات.. وهذه أحوال نعرفها بعقولنا ونراها بأعيننا ونحكم على أصحابها.

قل لنفسك: يا أنفس أما تتأملين منذ كم يوم تعدين..؟! منذ كم تقولين غدا.. غدا.... وقد جاء الغد وصار يوما.. فكيف وجدته..؟!

كثير من الناس يدخن.. فإذا قلت له: تب.. قال: إن شاء الله.. في رمضان أصوم عن السجاير طوال النهار.. فيصبح الأمر سهلا.. وجاء رمضان ثم مضى.. ولك يكف..

تجد الشاب ينظر الى الفتيات في الجامعة.. فإذ قلت له تب قال: إن شاء الله في الإجازة.. فتأتي الاجازات وتمر.. وهو لا يستطيع كف بصره عن النظر..

نعم.. نجد الكثير من الناس يعيش منشغلا بجمع الحطام الفاني من الدنيا.. فإذا قلت له: تب.. قال: بعد أن أعمل لبناء مستقبلي.. فإذا انتهى من العمل لمستقبله قلت له: تب.. قال: وماذا عن مستقبل أولادي..؟! وبعدها يقول: انتظر قليلا.. ثم قليلا.. حتى يدخل القبر وبعده لم يتوب..

إن الطغيان يورث طغيانا.. ومتابعة النفس تورث غضب الرحمن..

ناج نفسك.. قل لها: يا نفس.. اما علمت.. أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأمس.. ألا فاعلمي أيتها النفس أن ما عجزت عنه اليوم.. فأنت عنه غدا أشد عجزا.. ومثاله يا نفس ـ لو أن رجلا أمر باقتلاع شجرة من أصولها وهو شاب راح يقتلعها فوجد العمل شاقا.. فقال لنفسه: لنسترح اليوم ثم نقطعها من الغد.. ثم الى الغد.. ثم الى العام القادم..

فماذا يعمل العام القادم في الشجرة..؟! وماذا يعمل الزمن بقوته.. فبمرور الوقت تضعف قوته هو.. أما الشجرة.. فتزداد رسوخا وتشعبا في الأرض.. كذلك الشهوات.. فما لا تقدر عليه في الشباب لا تقدر عليه قط في المشيب.. فمن العناء رياضة الهرم.. ومن التعذيب تهذيب الذيب.. والقضيب الرطب يقبل الانحناء.. فإذا جفّ وطال عليه الزمان صعب عليه فعل ذلك..

إذاً فالسبيل الأول للتوبة هو الوقوف مع النفس.. وقفة حقيقية.. مع الوعظ والتذكير.. وحضور مجالس العلم..

ثانيا: عزل النفس عن مواطن المعصية:

قال صلى الله عليه وسلم:" المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" صحيح الجامع (٣٥٣٩).

وقال صلى الله عليه وسلم:" وأمّا جليس السوء كنافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك وإمّا أن تجد منه ريحا خبيثة" أخرجه البخاري (٥٥٣٤) كتب الذبائح والصيد، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة.

وقال علي ابن أبي طالب:" لا تصحب الفاجر فإنه يزيّن لك فعله ويود لو أنك مثله".

وقال بعض السلف:" إيّاك ومجالسة الأشرار، فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري".

وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعله فقط.. بل بالنظر اليه.. فالنظر الى الصور يورث في النفوس أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه..

إنّ أول ما يبدأ من التوبة.. اخي التائب أن تتخلص من رفقاء السوء فتستبدلهم بصحبة صالحة.. ثم بعد ذلك لا بد من تغيير المكان الذي كنت تعصي الله فيه..

إنّ الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا.. قال له العالم.." إنّ قومك قوم سوء.. وإنّ في أرض كذا وكذا قوما يعبدون الله.. فاذهب فاعبد الله معهم"..

اللهم اجمعنا مع الصالحين في الدنيا والآخرة..

نعم.. إنّك ينبغي أن تنتبه لهذا.. لأن قضية تغيير الرفقة من الأهمية بمكان.. فأصحاب السوء لا يتركونك.. ومن ورائهم الشيطان.. لا يريد أن يفلتك.. واسمع لقوله سبحانه وتعالى:{ ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّار} [مريم: ٨٣].. فالشياطين تؤز العصاة أزّا.. تدفعهم دفعا.. تسوقهم سوقا.. تقودهم قودا.. تيسر لهم..

أيها الأحبة في الله .. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنّ الشيطان لن يدعك تتوب.. سيجاهدك وسيقف لك بالمرصاد.. وسيستعمل كل أسلحته.. من معارفك وأصدقائك..

إنّك تذكر وأذكر معك.. يوم كنت تجلس على المقاهي.. تصاحب رفقة السوء.. كنت تدخل الى المنزل برفقة السوء هذه.. فترحب بهم أمك.. ويجلس أبوك معهم.. وينشرح صدره لهذه الجلسة..

فإذا بك يوم التزمت وتبت الى الله.. قال لك أبوك: يا ولدي.. إنّك ستوردنا موارد الهلكة.. إننا لا نستطيع معارضة الحكام.. لا تعف لحيتك.. وإذا استضفت اثنين من الملتزمين.. سألك: هل نويت تحويل المنزل الى وكر أم ماذا تريد؟؟ وهكذا..

هكذا سيجاريك الجميع.. الكل سيجاهدك.. حتى نفسك.. ستبدأ تورد عليك هذه النفس صور المعاصي القديمة.. تجد نفسك راقدا في مرة لتراجع حفظك من سورة البقرة.. أو تستمع اليها.. فتفاجئك نفسك.. بصورة الفتاة التي كنت تحبها.. فتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. وتتساءل من الذي أتى بها هنا..؟! وفي هذا الوقت بالذات..

نعم أعلم أنهم لا يودعونك.. لذا دع كلّ ما يذكرك بالمعصية. اتركه واهجره.. واهجر أصدقائك القدامى.. غيّر رقم الهاتف.. غيّر حتى عنوان المنزل إذا استطعت.. غيّر الطريق الذي تمر منه الى المنزل.. وإذا قابلت أحدهم في الطريق فسلم عليك.. فقل له: السلام عليك يا اخي.. فإذا قال: ماذا جرى لك..؟! فقل: عرفت الله.. وحذرني من الشياطين.. شياطين الانس والجن.. قل له: إنّي أدعوك الى الله ليتوب عليك الله كما تاب عليّ.. عندها قد يقول إنه قد جنّ..دعه يقول كما يشاء.. وإذا قالت لك نفسك إنني قد أنفره من سلوك الطريق القويم.. قل لها المهم أن ننجو بأنفسنا أولا ثم عندها تثبت أقدامنا قد نعود لنمد له يد العون.. بل سنعود اليه حتما لنأخذ بيده كما أخذ الآخرين بأيدينا..

ولكن ماذا يحدث إذا مددت له تلك اليد الآن ولما تثبت أقدامك فهششت له.. وبادلته الحديث.. فسوف يذكرك بأيام معاصيك.. فيدخل الوهن في قلبك.. سيقول إنّك قد جننت فأنا أعرفك أكثر من نفسك.. إنّك لست من هذا الطراز.. هل أنت من مرتادي المساجد..؟! أتذكر اسم الفتاة التي كنت تحبها..؟! أتذكر ما كنت تقول..؟! وكا كنت تفعل..؟! فهل يترك هذا عاقل ليكون مع هؤلاء المعقّدين.. ألا يحدث هذا بالفعل..؟!

لذا فقد حدث وقابلت أحدهم فلا تتبسط معه.. ولا تنسى الإنكار ولو يقلبك.. فإذا قال لك: إنني أريدك أن تأتي معي في أمر.. فقل له: إني في طريقي لحضور درس علم.. فإذا قال: إذاً غدا..؟! فقل له: غدا سأقوم الليل من بعد العشاء وحتى الفجر.. فإذا قال لك: إذا بعد الغد.. فقل له: إنني أنوي أن أختم القرآن بعد غد.. فعندها سيقول: جن والله.. فييأس منك فيتركك.. أو سيقول: أهتدي والله فيصحبك ويتبعك..

كما قلت لك من قبل: إياك وتلبيس إبليس.. يقول لك: إنّك قد خلقت للدعوة.. فقل له: أي دعوة..؟! أنا ما زلت في بداية توبتي.. ولتعلم أنك لست مسؤولا عن الدعوة قبل استكمال هداية نفسك.. الزم الصمت.. اترك أرض المعاصي.. إنك لن تستطيع اعتزال الناس في الجامعة.. أو في المنزل.. أو في العمل.. سوف تضطر للتعامل مع هؤلاء.. وعليه فإنه يجب عليك أن تعزل نفسك في البداية عن مواطن المعصية لفترة حتى تعتاد الالتزام..

إن نصيحتي لك ـ حبيبي في الله ـ أن تلزم نفسك الصمت.. حلّ بينها وبين من يشغلها.. إياك والمعارك الجانبية.. فإذا نظر إليك أبوك شذرا إذا أعفيت لحيتك ثم سألك: ما الذي تنوي عمله..؟! لا تقل إنّ اللحية فرض.. أو تتهمه بكراهية النبي صلى الله عليه وسلم.. ولكن قم فقبل رأسه.. وقبل يد أمك.. وقل لهما: الحمد لله الذي نجاني من لنار.. بفضل حسن تربيتكما لي.. أو بفضل دعائكما لي.. أو بفضل حرصك يا أبي على أن تطعمنا الحلال الطيّب.. ولعلي أنفعكما يوما.. ذكرهما بحديث:" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد ثالح يدعو له". صحيح مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

لا تقم معارك في المنزل مع إخوتك أو أبيك أو أمك أو جيرانك أو زملائك فتلهك المعارك عن اللجوء الى الله والسير إليه..

لا تفتح أبواب المعارك.. سد باب الذرائع عن أي سؤال.. فإذا قيل: يا بني.. هل اللحية فرض..؟! فقل: كيف حالك يا أبي.. إنني احبك.. وحاول أن تتفادى الصراع ما أمكنك..

فإذا قال لك: هل الصلاة لا تصح إلا في المساجد الخاصة بالملتزمين الذين يطيلون فيها..؟! قل له: ما رأيك يا أبي لو جلست معي فقرأنا ربعين من القرآن فإنك عندها ستشعر بجنة الله في القرآن.. إن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال.. وقال.. وقصّ له من اخبار النبي عليه الصلاة والسلام.. إنها حينها قد ترغبه بحسن خلقك.. وق يشعر هو بتحسن حالك.. وقد تدعوه بسمتك الصالح..

أما إذا أقمت من نفسك مفتيا.. وسردت له أدلة فرضية اللحية.. وأن إبن حجر العسقلاني ـ طيّب الله ثراه ـ قد قال.. ثم أتبعت بقول الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله .. ثم قول شيخ الاسلام ابن تيمية قدّس الله روحه.. فإنك لن تجد الوقت لتصحيح توبتك مع الله.. وإنما عليك بالنصيحة العابرة.. والهمسة الصادقة..

أطل الصمت.. وأدمن السكوت.. ولا تخض مع الخائضين.. جنّب نفسك الزلل وابتعد عن الخطأ.. وانكسر لله.. لا تطغ.. لا تتكبر..

إذا رأيت العصاة فاذكر قول الله تعالى:{ كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم} {النساء:٩٤].

قل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثيرا من عباده.. وفضّلني على كثير ممن خلق تفضيلا.

ثالثا: إدمان معاتبة النفس وتخويفها:

النفس إخوتاه تركن الى اللذيذ والهين.. فعلمها التحليق.. تكره الاسفاف.. علمها العز.. تأنف من الذل.. عرّفها الرب.. تستوحش من الخلق... نفسك هي دابتك التي تحملك الى الله.. عرّفها الطريق. تنقاد.. أبدا في معاتبتها وتقريرها بما صنعت من المعاصي.. لتنكسر لله..

قل لها يا نفس .. أرأيت إن متنا الآن بما نلقى الله..؟! ألحّ عليها حتى تلين.. اجعلها تعترف بكثرة جرائمها وذنوبها.. ادم ذلك عليها.. اجعله عملها.. أوجع بذلك ضميرها.. أسل بذلك دمعتها.. استنغفر الله من سوء ما تقدم من صنيعك وبخ نفسك..

قل لها.. يا نفس.. ويحك يا نفس.. لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا.. ولا يغرّنّك بالله الغرور.. يا نفس .. انظري الى نفسك... فما أمرك بمهم اغيرك.. يا نفس لا تضيعي أوقاتك.. فالأنفاس معدودة.. فإذا مضى منك مفس.. فقد ذهب بعضك.. اغتنمي الصحة قبل السقم.. اغتنمي الفراغ قبل انقضائه.. الغنى قبل الفقر.. الشباب قبل الهرم.. والحياة قبل الموت..

يا نفس استعدي للآخرة بقدر بقائك فيها ويحك يا نفس.. إن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فاتركيها ترفعًا عن خسّة شركائها تنزها لكثرة غثائها وعنائها.. توقيا من سرعة فنائها.. مالك يا نفس تفرحين بدنيا إن ساعدتك.. فإنها ستكون حجة عليك.. مالك يا نفس تفرحين بدنيا إن كانت لك فلا تخلو البلد من جماعة اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها.. فأف لدنيا يسبقك إليها هؤلاء الأخساء.. ما أقلك يا نفس وأخس همتك يا نفس.. وأسقط رأيك يا نفس.. إذا رغبت عن أن تكوني زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين.. أبد الآبدين رغبت في أن تكوني في جنة النعيم لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين.. أياما قلائل تفرحين ثم الى الأبد تعذبين فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين.. ويحك يا نفس.. بادري بالتوبة فقد أشرفت على الهلاك.. اقترب الموت.. وورد النذير فمن ذا الذي يصلي عنك بعد الموت.. من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت.. من يترضى عنك ربك بعد الموت.. ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة وهي بضاعتك إن أتجرت فيها فزت.. ويحك يا نفس.. قد ضيّعتي أكثر رأس المال فلو بكيتي بقية عمرك على ما ضيّعت فيها لكنت مقصرة في حق نفسك.. فكيف يا نفس.. إذا ضيّعت البقية وأصررت على المعاصي.. اما تعلمين أن الموت

موعدك.. والقبر بيتك.. والتراب فراشك.. والدود أنيسك.. والفزع الأكبر بين يديك.. أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرون وقد آلوا على أنفسهم بالإيمان المغلظة أنّهم لا يبرحون يا نفس.. أما علمتي أن الموتى العودة ليشتغلوا بالعمل الصالح ويستدركوا ما فرط منهم... أنت في أمنيتهم فاعملي.. يا نفس إن يوما من عمرك لو بيع منهم بالدنيا وما فيها لشروه.. ولو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ويحك يا نفس.. اما تخافين.. أما تخافين { كلا إذا بلغت التراق* وقيل من راق* وظنّ أنّه الفراق* والتفّت الساق بالساق* الى ربك يومئذ المساق* فلا صدّق ولا صلى* ولكن كذّب وتولّى* ثم ذهب الى أهله يتمطى* أولى لك فأولى* ثم أولى لك فأولى} [القيامة: ٢٦-٣٥].
ويحك يا نفس.. أما تخافين أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه.. وبشري العذاب.. أما تخافين؟ أما تذّكرين..؟ هل تذكرين..؟ هل ينفعك ساعتها الندم..؟ أو يقبل منك الحزن..؟ أو يرحم منك البكاء.. ويحك يا نفس.. ويحك يا نفس.. تعرضين على الآخرة وهي مقبلة عليك... وتقلبين عن الدنيا وهي معرضة عنك..!

يا نفس.. كم مستقبل يوما لم يستكمله..؟ وكم من مؤمل غد لم يبلغه..؟ وتشاهدين في ذلك الموتى ولا تعتبرين..

احذري يا نفس.. احذري يوما ترجعين فيه الى الله فتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.. احذري يا نفس ذلك اليوم فقد آل الله على نفسه ألا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله. فانظري يا نفس بأي أمر تقدمين.. وبأي لسان تجيبين.. أعدي للسؤال جوابا.. انظري يا نفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا.. ورفضك لها اختيارا.. وطلبك للآخرة ابتدارا.. يا نفس اتركي الدنيا مختارة قبل أن تتركيها مضطرة..

يا نفس كيف أقول لربي غدا إذا سألني عن عملي..؟ ووضح لي طريقي..؟ إذا نلت كتابي بشمالي..؟ ونادى ربي يوم القيامة وقد غضب غضبا شديدا لم يغضب مثله قط.. ولن يغضب بعده مثله..!

رابعا: علاج النفس بالصوم ومنع الحظوظ:

إنّ البطن إذا أكلت أشرت وبطرت.. وإذا صامت انكسرت.. وقل نشاطها.. وعادت الى ربها.. فأدمن الصيام كما أوصاك النبي العدنان.. عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم السلام.. قال:" فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" أخرجه البخاري (١٩٠٥) كتاب الصوم مسلم (١٤٠٠) كتاب النكاح.
وجاء: بمعنى قاطع للشهوة.. فامنعها ملذاتها.. كما يقول ابن الجوزي.. امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام..

أخي التائب.. ابدأ بتحقيق التوبة النصوح.. ابدأ بأن تتوب الى الله توبة نصوحا.. وقد قال إبن القيّم: في التحقيق أن التوبة تستلزم ترك المناهي.. والإقبال على العمل بالأوامر.. فمن

ترك المناهي.. ولم يعمل بالأوامر.. لم تقبل توبته.. وليس بتائب.. قال تعالى: {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات} [الفرقان:٧٠].

فشرط قبول التوبة.. العمل بالطاعة.. فآن تب.. ارفع يديك.. ناد ربك.. وقل له يا رب تبت من كذا وكذا من المعاصي..

ولكن اعلم ـ رحمني الله وإيّاك ـ أن تحديد المعاصي التي تتوب منها ليس شرطا في التوبة.. فقد تكون التوبة مجملة.. بأن تتوب الى الله من جميع الذنوب والمعاصي جملة دون تفصيل.. فتقبل إن شاء الله..

وإنما يكون هذا التحديد لزجر النفس وتذكيرها.. وإلهامها التوبة وتثبيتها على هذه المعاني..

تبت من كذا وكذا.. وعزمت ألا أعود أبدا لكذا وكذا.. وعاهدتك ربي أن أفعل كذا وكذا..

لا بد من هذا الوضوح وإيّاك أن تسوف.. الساعة.. الساعة قل: تبت.. ثم ابدأ بإمساك المصحف.. وصف قدميك لله تعالى.. أمسك بالمصحف وقل الله أكبر.. اقرأ عاء الاستفتاح.. اقرأ الفاتحة.. تباك بين يدي الله سبحانه وتعالى.. رحم الله أحد مشايخنا كان يقف في الصلاة ويقول: ألا تعرف كيف تصلي..؟ كيف تذل لله سبحانه وتعالى..؟ وتتباكى بين يديه..؟

ابدأ بدعاء الاستفتاح وتباك.. فلا تبدأ في قراءة الفاتحة حتى تسيل دموعك على خديك وتسترسل في القراءة حتى يغلبك البكاء فلا تملك إلا الركوع بين يدي الملك ثم تسجد له وحده ودموعك تغسل جبال الذنوب التي تطبق على صدرك وتكاد تزهق أنفاسك وتخرج من الصلاة وأنت لا تريد أن تنتهي مناجاة ربك.. فتشعر عندها أنك وجدت نفسك.. وجدت لقلبك الحائر مستقرّا.. ووجدت لنفسك القلقلة سكنا.. ووجدت لروحك المعذبة أمانا..

فإذا طالبت بالطعام فذلها.. وإذا أرادت النوم فاحرمها.. امنعها فضول المباح ليقع الصلح على ترك الحرام.

خامسا: أن تأخذ من نفسك الراحة وتنزل بها التعب ونقصان المباح:

إن نفسك تعمل.. فإن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.. أتعبها في قيام الليل.. نم ساعتين فقط.. بعدها توجه للعمل.. عندها لن تجد القوة لتعصي الله.

حتى إذا كنت طالبا.. إنك تستطيع القيام أولا بواجب الاستذكار.. ثم تستعين بالله وتقوم الليل. ثم نم ساعتين. واستعن بالله تمضي الى الامتحان نشيطا.

لا تخطئ الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون.. أن تتعلق قلوبهم بما حصلوا من المواد العلمية فقط.. وينسون أن التوفيق من الله وحده.. إن الذي يعلّم ويذكّر هو الله سبحانه وتعالى فيتعلق

قلبك به.. هو الفتاح العليم.. فهو الذي قد يفتح عليك هذه الاجابة أو يخذلك.. هذا مع ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله..

أنك إذا أتعبت جوارحك في طاعة الله عز وجل أتعب الله الكائنات في خدمتك.. إن مشكلة قومنا أنّهم لو يجربوا التعب لله.. لقد جربوا التعب في الدنيا .. ولم يجربوا التعب لله.. لقد جربوا التعب في الدنيا.. ولم يحصلوا شيئا.. ورغم ذلك لم يكفوا عن مواصلة التعب فيها.. تعبوا كثيرا للزوجات .. للأبناء.. للنفس.. للهوى.. ولكل ما عدا الله سبحانه وتعالى.. فلنجرّب الآن نوعا جديدا من التعب.. التعب لله عز وجل.. قال بعضهم حين سئل: ماذا تشتهي.. قال: إني لأشتهي أن أقوم في الصلاة حتى يشتكي صلبي.. وقيل لبعضهم: ماذا تشتهي..؟ قال: أشتهي أن أقوم حتى لا أقدر أن أقوم.. أود أن أقف في الصلاة حتى لا أستطيع القيام.. أريد أن أسجد حتى تتقطع أنفاسي.. أريد أن أركع لله حتى تشكو عضلاتي.. أريد أن أصوم لله حتى لأشرف على الهلاك من الجوع.

إن التعب غير مقصود لذاته وإنما المقصود إذلال النفس لله.. إنكسارها له.. أما إذا أعطيت نفسك مطلوبها بدون عناء.. فستقودك الى الكفر بنعم الله.. ستقودك الى جهنم.. ومن سقط في المعاصي يحدثك: يقول أن نفسه قالت له: ابدأ بسيجارة.. ثم بعد أن سقط في هوّة التدخين قالت له: ألا تجرب المخدرات.. ثم الخمر.. ثم دفعته الى الوقوع في الفواحش.. زنا.. لواط.. إلخ.. حتى يصل إلى عبادة الشيطان.. ويقع في الكفر عياذا بالله من الخذلان.

إن الحل هنا أن تقف مع أول خاطر.. فإذا قالت لك نفسك: النوم.. فقل لها سنقوم الليل.. وإذا طالبت بالطعام.. فقل: سنقرأ القرآن.. فإذا أرادت الخروج للقاء الأصدقاء فقل لها أين الاعتكاف..؟

خالف نفسك.. حتى تفوز برضى الله..

إن كل ما سبق بدايات ولكن إذا ألفت نفسك الطاعة.. أنفت المعصية.. وإذا أدمنت حب الله والانقياد لأوامره تركت الذنوب.. وسهل عليها الأمر.. ومن يتصبر يصبره الله.. والله المستعان.

سادسا: ارفع لها بالفكرة أعلام الآخرة:

أرها الجنة والنار.. اجعلها تشاهد من أمامك في الطريق.. إنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين.. ارفع لنفسك أعلام الآخرة حتى تستقيم.. ذكر هذه النفس التي تشتهي شيئا دنيويا
بعظمة لجنة.. ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. إذا اشتهت نفسك الملابس ذكرها بقول الله سبحانه وتعالى:{ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا* ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا* قواريرا من فضة قدّروها

تقديرا* ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا* عينا فيها تسمّى سلسبيلا* ويطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا* وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا* عليهم ثياب سندس من خضر واستبرق وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربّهم شرابا طهورا* إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا} [الانسان:١٤-٢٢].

تعرض على نفسك هذه الآيات وأمثالها.. قل لها: { أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا، لا يستوون* أمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى نزلا بما كانوا يعملون* وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذّبون} [السجد: ١٨-٢٠].

قل لها: يا نفس.. هذا طريق الصلاة.. طريق المسجد.. طريق الصيام.. طريق القيام.. طريق الذكر.. طريق تلاوة القرآن..

هذا هو الطريق أمامك.. فيه محمد صلى الله عليه وسلم.. سبقك في هذا الطريق أبو بكر وعمر.. عثمان وعلي.. طلحة والزبير.. عبدالله بن مسعود وعبدالرحمن بن عوف.. عبدالله بن عباس ومعاذ بن جبل.. أمامك فيه أبوذر وأنس.. ياسر وعمّار.. أمامك في الطريق العلماء والكبراء والعظماء من عباد الله الصالحين القانتين المتقين..

أما الطريق الآخر.. طريق الشهوات والزنا.. الخمر والنساء.. اللعب والتفلت.. أمامك الطريقان يا نفس.. فاختاري ما تريدين..

أتريدين طرق أبي بكر وعمر..؟ أم طريق أبي جهل وأبي لهب..؟ تريدين طريق البررة أم طريق الفجرة..؟

اختاري لنفسك أيتها النفس.. ولكن اعلمي أنّ أكثرنا قد يمضي الى المعاصي لجهله بالجنة.. أو لجهله بالطريق الموصلة إليها..

فإذا أردت أن تعرف الطريق الى الجنة.. فاسأل الله سبحانه وتعالى أن يدللك عليها.. وإذا أردت الابتعاد عن طريق الهالكين فاسأله سبحانه وتعالى وعز وجل أن يهديك سواء السبيل..

سابعا: تحطيم الأصنام:

الأهواء أصنام تعبد من دون الله لذلك قال تعالى: { أرأيت من اتخذ إلهه هواه} [الفرقان:٤٣].. فالربا صنم.. والزنا صنم.. والتبرج صنم.. وأكل أموال الناس بالباطل صنم.. وكل ما تهواه النفس مما يغضب الله سبحانه وتعالى صنم..

فالأغاني وحبها صنم.. والتلفزيون وتعلق القلب بما فيه صنم.. وحب المظاهر والزينة حرام.. والاستعلاء على الناس صنم..

ولا تصفو التوبة حتى تتحطم كل هذه الأصنام.. وتسقط في قلبك سقطة لا تقوم لها بعدها قائمة..

إن توبة مع تواجد هذه الأصنام في أغوار النفس توبة مدخولة.. لأن النفس أمارة بالسوء.. فإذا ما وجدت صنما من هذه الأصنام قائما بعد لم يحطمه صاحبه فإنها تغريه وتزينه له وتشوقه لعبادته القديمة.. وكلما أبى وتمنّع عاودت معه الكرّة تلو الكرّة.. حتى يعود من حيث جاء.. وتنهار توبته التي لم يحطم فيها جميع الأصنام..

فلا بد لم أراد توبة نصوحا أن يحطم في نفسه كل ما يربطه بالماضي الأثيم... لهذا سمعنا عن عودة بعض التائبين الى الضلال بسبب تركهم لبعض ما يربطهم بالمعصية دون تحطيم..

فهذا يحتفظ بعود كان يعزف عليه. وآخر بشريط تسجيل كان له معه ذكرى.. وثالث يحتفظ بوردة من حبيب.. ورابع بكارت أو خطاب من وديد.. وغير ذلك من آلات طرب أو صور عارية.. أو أموال حرام.. وصداقات نساء.. وزجاجات خمر.. ومخدرات.. ومفترات وغيرها من أمور المعصية.

بينما ثبت البغض الآخر من التائبين ممن حطموا في بداية توبتهم كل ما يربطهم بما يغضب الله.

فمطرب يحطّم آلات الطرب.. ورسام يمزق اللوحات.. ومراخق يمزق المجلات والصور الداعرة.. ومدمن يكسر زجاجات الخمر ويرمي بامخدرات في بالوعة المجاري.. ومراب يسحب أموال الربا ليتخلص منها في المشاريع الخيرية التي تنفع المساكين.. ومتبرحة تحرق ثيابها كلها.

إنها فعلا صور تتكرر لأتباع ابراهيم عليه السلام حينما حطم الأصنام لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم حينما حطم الأصنام لغرس التوحيد في أرض الاسلام الجديدة.

أخي في الله: مناجاتك نجاتك.. صلاتك صلاتك.. أخلص لله في صلاتك ومناجاتك تخلص.. ناده والناس نيام..

يا أكرم من أمّله الآملون.. إن طردتني فإلى من أذهب.. وإن أبعدتني فإليك أنسب.. علمت ذنبي وحلقتني.. رأيت زللي ورزقتني.. فاشملني بعفوك ورحمتك أنت أرحم الراحمين وأنت الذي تقبل التوبة عن عبادك.. وتعفو عن السيئات وتعلم ما يفعلون..

نعم أنت غافر الذنب.. قابل التوب.. شديد العقاب ذي الطول.. لا اله إلا أنت عليك توكلنا وإليك متاب..

أبشر أيها التائب.. إن كل من تاب توبة صحيحة فإنها مقبولة.. إنّ نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة.. لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون.. كما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك أن يكون لباسه.. فالقلب المظلم لا يقبله الله لأن يكون بجواره.. وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب.. وغسله بالصابون.. والماء ينظفه.. فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقه بالندم ينظفه ويطهره ويزكيه..

وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول.. كما أن كلّ ثوب نظيف فهو مقبول.. فعليك بالتزكية والتطهير.. تب الى الله.. ونقي قلبك.. والله يقبلك..

بشراك يا عبد الله.. أبشرك أخي التائب بقبول التوبة.. بسرط أن تتوب الى الله بصدق وإخلاص.. اللهم تقبل توبتنا.. واغسل حوبتنا.. وامح خطيئتنا وارفع درجتنا.. وسدد ألسنتنا.. واسلل سخيمة صدورنا..

أخي التائب.. أقلع عن المعصية .. تب والله يتوب عليك.. اندم على ما فات باستقباح الذنب في حق الله تعالى.. اعزم على ألا تعود والله المستعان..

نسأل الله أن يتوب علينا وعلى عصاة المسلمين..

أخي التائب.. إن الباب مفتوح.. والفرصة ما زالت سانحة.. فاستعن بالله وأمامك عطاء مقبول.. قل: تبت.. والله يقبل توبتك.. فاستعن بالله ولا عجز فإن النصر مع الصبر.. والفرج مع الكرب.. وإنّ بعد العسر يسرا..

وإياك من وسوسة الشيطان أن يقول: لك إنك لن تقدر على التوبة.. فقل: إن شاء الله سأقدر عليها.. فمعي القوي المتين.. سيعينني..

أحسن ظنّك بالله وهو يعينك.. اللهم تب علينا وعلى عصاة المسلمين..

أخي.. لا تسوف.. عجّل عجّل.. هيا.. هيا.. تب من هذه اللحظة.. واصبر على توبتك.. فكم نصبر على الوحشة بيننا وبين الله تعالى.. واصبر على توبتك.. فكم نصبر على الوحشة بيننا وبين الطاعات.. كم نصبر على جفاف القلب.. وكم نصبر على غياب الراحة عند الانطراح بيني يدي الملك سبحانه وتعالى بعد أن ذقنا حلاوتها.. كم صبرنا على نار المعصية وحرقتها في القلب.. كم صبرنا..

الآن مطلوب منك الصبر على الطاعة.. الصبر على التوبة.. محاولة العودة في طريق طويل قطعته بعيدا عن الله سبحانه وتعالى..

إن المرضى يتصبرون.. يصبرون على مر الدواء في انتظار راحة الشفاء.. لنصبر ولنصبر ولنصبر.. ولنقهر أنفسنا التي كم قهرتنا على المعاصي.. إنني أعلم أن ما أقوله لك وما أطلبه منك عسير.. ولكن تذكر أنه ليسير على من يسره الله عليه.. واعلم أنها لن تأتي إلا كرها.. أما إذا انتظرت أن تأتي نفسك بالمبادرة.. فإنها لن تأتي أبدا.. واعلم أيضا أن من يتصبر يصبره الله..

كم وقفنا وتصبرنا على أبواب الآدميين.. أفلا نتصبر على باب رب العالمبين.. إننا نيرد أن يرى تعبنا وجهدنا.. فيرحم ضعفنا..

وإذا أردت الإعانة فاستعن بالمعين وقد أعانك.. ويعينك.. ولكن متى يعينك.. إذا وجد منك خيرا وعزما على التوبة.. وندما على التفريط.

واعلم أن توبة العبد محفوفة بتوبتين.. توبة قبلها وتوبة بعدها {ثم تاب عليهم ليتوبوا} [التوبة: ١١٨].

فأخبر سبحانه وتعالى أن توبته على الثلاثة الذين خلّفوا سبقت توبتهم.. وأنها هي التي جعلتهم تائبين.. فكانت توبة الله عز وجل عليهم مقتضيا لتوبتهم.. فإنه سبحانه يتوب على العبد أولا.. إذنا وتوفيقا وإلهاما.. فيتوب العبد.. فيتوب الله عليه ثانيا.. قبولا وإثابة.. يتوب الله عز وجل إذنا.. يأذن له في التوبة.. قال الله تعالى:{ لمن شاء منكم أن يستقيم* وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} [التكوير: ٢٨-٢٩].

واعلم أخي التائب.. أنّ العبد إذا حرم التوفيق يجد في كل خطوة عثرة.. وفي كل حركة خذلانا.. نعوذ بالله من الخذلان..

إن التوبة الثانية.. توبة القبول والإثابة.. هي سر من أسرار اسمي الله " الأول" و " الآخر" .. فإنه سبحانه المعد.. والممد..

ولكي تتوب.. لا بد وأن تعرف الله.. أن تعرف أسماءه وصفاته..

فإن من أسرار اسمي الله " الأول" و " الآخر" فإنه سبحانه السبب والمسبب.. العبد توّاب والرب توّاب.. فتوبة العبد رجوعه الى سيده بعد الإباق.. وتوبة العبد نوعان.. الأول: إذن وتوفيق.. والثاني: قبول وإثابة..

وللتوبة مبتدأ ومنتهى.. مبدؤها: الرجوع الى الله بسلوك الصراط المستقيم الذي أمر بسلوكه { وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه}[الأنعام: ١٥٣].

ونهايتها الرجوع اليه في الميعاد.. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا الى جنته.. فمن رجع الى الله في هذه الدار بالتوبة.. رجع الله إليه في الميعاد بالثواب، قال تعالى: { ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا} [الفرقان:٧١] اللهم تب علينا.

أيها الإخوة.. إن التوبة شاقة نعم ولكن إذا أقبلت فإن الله معينك لا محالة.. إذا اعتمدت على حولك وقوتك فلن يكون لك شيء.. اما إذا استعنت بحول الله وقوته أعانك.. ووفقك.. وكما قلت آنفا.. إنه ليسير على من يسره الله عليه.. ولكن المخذول محروم.. من يستصعب الأمر هو من يزل عن الصراط المستقيم..

حقا نقول: ليست كل الخيل للسباق... وليس كل الطير يحمل الكتب.. من الناس من تشغله في الدنيا سوداء.. ومن الناس من لا يلهيه في الجنة حوراء.. نعم من الناس من لا يلهيه في الجنة قصر ولا يسليه عن حبيبه نهر.. قوته في الدنيا الذكر.. وفي الآخرة النظر الى وجه الله الكريم....

يا مخنث العزم أين أنت والطريق..؟؟ يا مخنث العزم يا من يستصعب حتى التوبة.. يا مسكين استعن بالقوي المتين.. يا ضعيف استعن بمالك السموات والأرض.. القاهر القادر.. يا مخنث العزم أين أنت والطريق..؟؟

الطريق سبيل نصب فيه آدم.. ناح لأجله نوح.. ألقي في النار إبراهيم الخليل.. أضجع للذبح إسماعيل.. بيع يوسف بدراهم.. ذهبت من البكاء عيني يعقوب.. نشر بالمنشار زكريا.. ذبح الحصور يحيى.. ضني بالبلاء أيوب.. زاد على المقدار بكاء داود.. تنغّص في الملك عيش سليمان.. طريق طويلة.. تحير برد "لن" نبي الله موسى.. هام مع الوحوش عيسى.. عالج الفقر والأسى سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم...

فيادارهم بالحزن إنّ مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

أيها التائب.. إنّ أول قدم في الطريق بذل الروح.. فإن كنت تقدر على بذل الروح فتعال.. وإلا فاذهب والعب مع اللاعبين.. أول قدم في الطريق بذل الروح..

هذه الجادة.. فأين السالكين.. هذا قميص يوسف فأين يعقوب..؟؟ هذا طور سيناء فأين موسى..؟؟

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذي يبتاع بالثمن..؟؟

أخي في الله.. اعلم أنك إذا قرات كل ما سبق ولم تتب.. خرجت من أولي الفهم.. اللهم ارزقنا توبة تقبلها.. اللهم ارزقنا توبة ترضيك..

لنتب إخوتاه

واعلموا؛ أن التوبة ليست كلاما.. أبدا ما كانت التوبة كلاما يوما ما..

إنّ التائب منكسر القلب.. غزير الدمعة.. حي الوجدان.. قلق الأحشاء..

التائب.. صادق العبارة.. جم المشاعر.. جياش الفؤاد.. مشبوب الضمير.. التائب خلي من العجب.. فقير من الكبر.. مقل من الدعاوى..

التائب.. بين الرجاء والخوف.. بين السلامة والعطب.. بين النجاة والهلاك.. التائب في قلبه حرقة..

التائب.. في وجدانه لوعة..

التائب في وجهه أسى..

التائب.. في دمعه أسرار..

التائب. يعرف معنى الهجر والوصال.. يعرف معنى الوصال واللقاء.. يعرف التائب.. يفرق بين اللقاء والفراق..

التائب.. بين الاقبال والاعراض.. مجرّب.. ذاق العذاب في البعد عن الله.. وذاق النعيم حين اقترب من حب الله..

التائب.. له في كل وقعة عبرة.. إذا رأى جمعا ذكر القيامة.. وإذا رأى مذنبا بكى عليه خوفا من ذنوبه..
إذا رأى نعيما خاف أن يحرم الجنة.. وإذا رأى نارا ظن أنه مواقعها..

التائب.. إذا هدل الحمام بكى.. وإذا صاح الطير ناح.. وإذا شدا البلبل تذكّر.. وإذا لمع البرق اهتز قلبه خوفا ممن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته..

التائب.. ـ إخوتاه ـ يجد للطاعة حلاوة.. يجد للعبادة طلاوة.. يجد للإيمان طعما.. يجد للإقبال لذة..

اللهم اجعلنا من التوّابين..

التائب .. يكتب من الدموع قصصا.. وينظم من الآهات أبياتا.. ويؤلف من البكاء خطابا..

التائب.. كالأم اختلس منها طفلها.. ثم اختلست طفلها من يد الأعداء.. أتدري كم فرحتها..؟؟ أتقدر سعادتها..؟؟

التائب.. كالغائص في البحر.. إذا نجى من اللجة الى الشاطئ.. بعد أن آيس من النجاة..

التائب.. كالعقيم بشر بولد..

التائب.. أعتق رقبته من أسر الهوى.. أطلق قلبه من سجن المعصية..

التائب.. فك روحه من شباك الجريمة.. أخرج نفسه من كير الخطيئة.. التائب ـإخوتاه ـ كالطائر الجريح لا يختال..

التائب.. كالقمر الكاسف لا يتكلم..

التائب.. كالنجم الغابر.. لا يصيح..

لو رأيت التائب لرأيت جفنا مقروحا.. نبصره في الأسحار على باب الاعتذار مطروحا.. سمع قول الاله يوحى فيما يوحى{ يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا} [التحريم: ٨].

التائب... مطعمه يسير.. حزنه كثير.. كأنما هو أسير.. قد رمي مطروحا.. فتاب الى الله توبة نصوحا..

التائب.. قد نحل بدنه الصيام.. أتعب قدمه القيام.. حلف بالعزم على هجر المنام.. فبذل لله جسما وروحا.. وتاب الى الله توبة نصوحا..

التائب.. الذل قد علاه.. والحزن قد وهاه.. يذم نفسه على هواه..وبذلك صار عند الله ممدوحا.. لأنه تاب الى الله توبة نصوحا..

أين من يبكي جنايات الشباب... ؟؟ أين من يبكي على الخطايا التي سود بها الكتاب..؟؟ أين من يأتي الى الباب فيجد الباب مفتوحا.. توبوا الى الله توبة نصوحا...

نسألك اللهم توبة نصوحا.. نذوق بها برد اليقين.. وطعم الاخلاص. ولذة الرضا.. وأنس القبول.

لماذا لا نتوب؟!!

أيها العاصي المتخلف عن ركب التائبين

سار المجدون وتركوك ونجا المخفون وخلفوك
نادهم إن سمعوك واستغث بهم إن رحموك

لماذا لا نتوب؟!!

إن التوبة ليست كلمة تقال.. ليست ظنا.. فإذا تبت فاصدق.. وعالج الصدق.. وتعال لنتساءا معا..
لماذا لا نتوب..؟؟
إننا لا نتوب توبة نصوحا لوجود عوائق في طريق التوبة..
سبع عوائق في طريق التوبة:

العائق الأول: تعلق القلب بالذنب:

قد يتعلق القلب بالذنب.. يتعلق بإمرأة.. بسيجارة.. بمال.. بحب النفس.. أو عبادة اللذات.. يتعلق بشيء من الذنوب والمعاصي..

والقلب إذا تعلق بشيء عز اقتلاعه منه..ولكن تعالوا.. تعالوا لنعالج تعلق القلب بالذنب في نقاط..

١- نسيان الذنب:

أن تنسى ذنبك.. ففي بعض الأوقات قد يفيد تذكر الذنب لينكسر القلب بين يدي الله إذا رأى العبد من نفسه عجبا أو كبرا.. فإذا تذكر ذنبه ذل لله..

ولكن ينتبه .. أنه إذا رأى من نفسه أنها إذا تذكرت سابق ذنبها تهيج خواطرها للعودة للمعصية فلينس ذنبه.. فلكل نفس ما يصلحها.. وقد يكون فيما يصلح غيرها ما يفسدها هي.. وكلّ أعلم بنفسه وأحوالها وإن غلبه الشيطان فأنساه..

نعم نقول ينسى ذنبه إذا رأى من نفسه توقا إليه..

وفي هذا يقول بعض السلف :" إنّك حال المعصية كنت في حالة جفاء مع الله سبحانه وتعالى.. اما بعد التوبة فقد أصبحت في حالة صفاء مع الله عز وجل.. وإنّ ذكر الجفاء في وقت الصفاء جفاء".

لذا.. انس ذنبك.. ولا تفكر فيه.. حتى لا تهيج في قلبك لواعج المعصية.. أو تتذكر حلاوة مواقعة الذنب.

٢- هجر أماكن المعصية:

أن تهجر مكان المعصية تماما.. لا تعد إليه.. انظر الى قيس المجنون وهو يقول:

أمر بالديار ديار ليلى فألثم ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفني ولكن حب من سكن الديار

إنّ البكاء على الأطلال سمة من تعلقت قلوبهم بغير الله.. فمن كان يعرف امرأة وتاب الله عليه.. إذا مشى في الطريق يتذكرها ويستعيد في مخيلته أيام المعاصي.. فقل له: ستعود يا مخذول..

لذا إذا أردت المحافظة على توبتك فاهجر المكان.. لا تعد إليه مرة أخرى.. لا تمر به.. وإذا مررت به فاذكر نعمة الله عليك وقل الحمد لله الذي عافاني.. فغيرك ما زال يسير في طريق الهوى.. لا يستطيع منه فكاكا.. وابك.. وابك على معاصيك.. وتذكر قوله صلى الله عليه وسلم:" لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا ان تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم.. لا يصيبكم ما أصابهم". أخرجه البخاري(٤٣٣) كتاب الصلاة، (٣٣٨٠) كتاب أحاديث الأنبياء، (٤٤١٩) كتاب المغازي).

فالذي يريد النجاة لا يسكن في أرض موبوءة فإن ميكروب المرض لا بد أن يصيبه.. فكيف لتائب من الزنا أن تحسن توبته وهو لا يكف عن تتبع أخبار الفائدة ومصادقة المرابين وزيارتهم في أعمالهم..

وكيف لتائب من التدخين أن يستمر على التوبة وهو لا يجالس إلا المدخنين.. فلا ينهاهم ولا يفارق مجالسهم..

لا بد من هجر أماكن المعصية.. وهذا ما قاله صلى الله عليه وسلم عندما مروا بديار ثمود..

٣- تغيير الرفقة:

وذلك بالالتصاق بالصالحين.. ومن تذكرك رؤيتهم بـ الله تعالى.. وتعينك صحبتهم على طاعة الله.

٤- استشعار لذة الطاعة:

اللهم أذقنا برد عفوك.. ولذة عبادتك.. وحلاوة الايمان بك..

استشعار لذة العبادة.. لماذا؟.. لأنك إذا استشعرت لذة العبادة فإنك تستعيض بها عن لذة المعصية.. إن للمعصية ولا شك للغافل لذة ولسقيم القلب متعة.. ولكن إذا استشعر لذة العبادة.. إذا سجد فتمتّع واستشعر لذة القرب من الله وعرف حب الله.. وعلم لطف الله تعالى بعباده.. علم كرمه وجوده..

فإذا استشعر كل هذا فاض قلبه بالإيمان وزاد.. وكلما خطر له خاطر المعصية هرع الى الصلاة.. وإذا استشعر لذة تلاوة القرآن.. لذة مخاطبة الله له.. مخاطبة ملك الملوك له.. رب الأرباب.. القاهر المهيمن.. حين تستشعر لذة العبادة تحتقر لذة المعصية تستقذرها..

٥- الانشغال الدائم:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

اعمل فإنك إن لم تشغل قلبك بالحق شغلك بالباطل.. ابدأ بحفظ القرآن.. احفظ السنّة.. تعلم الفقه.. تعلم العقيدة.. اقرأ سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.. انظر في سير السلف الأوائل.. ابدأ العمل في الدعوة.. تحرّك لنصرة دين الله.. ساعد الفقراء.. إرع المساكين.. علّم الأطفال.. انشغل فهذا الانشغال يقطع تعلق قلبك بالذنب.

٦- صدق الندم واستقباح الذنب:

أن تصدق في الندم على ما فات.. فيعافيك الله مما هو آت.. أصدق الله يصدقك.. أصدق في الندم.. واستقباح الذنب.. بأن تعتقد قذارة المعصية.. فلا تعود اليها.. ويعينك الله على الثبات بعيدا عنها.

٧- تأمل أحوال الصالحين:

قيل لبعض السلف: هل يستشعر العاصي لذة العبادة..؟؟ قال لا والله ولا منّ وهمّ..

حين تتأمل أحوال الصالحين وتتأمل ـ مثلا ـ حال معاذ بن جبل عندما أصابه الطاعون فقال لغلامه: أنظر هل أصبحنا..؟.. قال: لا.. بعد.. فقال: أعوذ بـ الله من ليلة صاحبها الى النار..؟؟

انظر من القائل..؟؟ إنه معاذ بن جبل..!! إنه يخشى النار..!! فماذا تقول أنت..؟؟

واعجبا لخوف عمر مع عمله وعدله.. ولأمنك مع معصيتك وظلمك..

٨- قصر الأمل ودوام ذكر الموت:

إنّ الذي يذكر الموت بصفة دائمة يخشى أن يفاجأه الموت.. فيلقى الله على معصيته... فيلقيه الله في النار ولا يبالي..

قال الحسن:" أخشى ان يكون قد اطلع على بعض ذنوبي فقال: اذهب فلا غفرت لك".

قال الحسن:" اخشى والله أن يلقيني في النار ولا يبالي".

أول ما يجب عليك فعله هو أن تخلص قلبك من الذنب كما قال إبن الجوزي:" دبّر لنفسك أنّك إذا اشتبك ثوبك في مسمار.. رجعت الى الخلف لتخلصه.. وهذا مسمار الذنب قد علق في قلبك أفلا تنزعه.. انزعه ولا تدعه في قلبك يغدو عليك الشيطان ويروح.. اقلع الذنب من قلبك..

اللهم طهّر قلوبنا..

٩- تعويد النفس على فعل الحسنات والإكثار منها:

عوّد نفسك على الإكثار من الحسنات إنّ الحسنات يذهبن السيئات.. والماء الطاهر إذا ورد على الماء النجس يطهره قال صلى الله عليه وسلم:" وأتبع الحسنة السيئة تمحها" أخرجه الترمذي (١٩٨٧) كتاب البر والصلة، والامام أحمد في مسنده (٢٠٨٤٧)، و(٢٠٨٩٤).

العائق الثاني من عوائق التوبة: استثقال التوبة واستصعاب الالتزام:

وهذا من فعل الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء.. بعض الناس إذا قلت له: تب.. قال لك: إن هذا عليّ صعب عسير.. فمثلا ترى المدخن يقول: إنّ لي عشرين عاما وانا أدخن.. أنا أنوي التوبة من التدخين.. ولكن كيف اتوب وقد تسرب هذا السم الى جسمي وصرت لا أستطيع التخلص من أسره..؟؟

ويقول لك آخر: إنني مذ عرفت عيناي الرؤية وأنا أنظر الى النساء.. فكيف أتوب وآخر: كيف أنتهي عن الكذب والنميمة..؟؟ ورابع يقول: إنني طوال حياتي أرسم للناس صورة خيالية عن نفسي ولا أستطيع أن أهدم تلك الصورة الآن..

إنهم وفي قرارة أنفسهم يعلمون أنهم مخطئون.. ولكنهم يحتجون أو يتبجحون.. فيقولون.. إنّ الملتزمين قد حرموا كل شيء.. السجائر.. الخمر.. الموسيقى... الشم.. الهيروين.. كلّ هذا حرام.. فما بقي لنا..

سبحان الله العظيم.. فكيف السبيل للتحاور مع هؤلاء.. كيف تقول لهم إنّ الحرام أشياء معدودة وهو ما حرمه الشرع ولم يحرمه الملتزمون.. أما الحلال فلا سبيل الى حصره..

إننا نتناسى أن الأصل أن تعيش لله وبالله... ولا تستثقل الالتزام مثل أن تقوم لتصلي الفجر في حين تعودت أن تنام حتى الظهر.. ألا ترى أنه من الخسران أنك قد حولت لياك الى نهار.. ونهارك الى ليل.. هذا في حين يقول خالقك في كتابه العزيز:{ وجعلنا الليل لباسا* وجعلنا النهار معاشا} [النبأ: ١٠ -١١] وقال:{ من إله غير الله يأتيكم بليل فيه تسكنون} [القصص: ٧٢].

فالليل سكون.. وأنت قد قلبت السكون الى ضجيج وموسيقى.. وعشت لياك نهارا.. عندها لن يكفيك نوم النهار كله.. ولكن إذا حاولت ضبط نفسك.. فتنام مبكرا وتستيقظ مبكرا.. كما قالت أم المؤمنين عائشة: عجبت لمن ينام عن صلاة الضبح كيف يرزق..؟ فبعد صلاة الصبح تقسم الأرزاق.. أنت تنام ولا تصلي والله برزقك.. ألا تخجل من نفسك..؟! تعصي الله وهو يمهلك..

والسؤال الآن: كيف يمكن الخلاص من استثقال التوبة واستصعاب الالتزام..؟

عليك الآن بالآتي:

١- دفع التسويف:

فورا وبلا تردد.. والتوبة بادي الرأي.. ألا تفكر قبل أن تتوب... وأن تسلم لله سبحانه وتعالى.. وانظر لكلمة اشتهرت عن سيدنا علي رضي الله عنه - ولا نعلم مدى صحتها

بالنسبة إليه ـ .. أنه لما عرف الاسلام قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:" ألا تستشير والديك..؟" قال: وهل استشار الله سبحانه وتعالى ولدي حين خلقني..؟

إنّ أحدهم إذا قلت له: تعل لتصلي العصر قال لك: سوف أصلي ركعتين استخارة أولا.. فيم تستخير..؟ وعلام..؟

إن الواجب عليك أن تتوب.. الآن وبلا تسويف.. فإنّ التوبة فرض.. واجب.. هل تفكر ما إذا كنت تتوب أم لا..؟ إنّ هذا كمن يستفتي الناس فيما شرع الله هل صحيح أم لا؟

إنها أومر الله.. وقد هداك النجدين.. إما أن تطيع أو أن تعصي.. فهل ستطيع أم أنك ستعصي..

واعلم أنّ أول علاج لاستثقال التوبة واستصعاب الالتزام هو دفع التسويف فورا.. وتحرير النية.

٢- الصدق مع الله:

إذا صدقت مع الله فسيعوّضك الله خيرا مما تركت.. فمن ترك العمل في البنوك الربوية لله روقه الله من حيث لا يحتسب.. فسبحانه الذي يطعم ولا يطعم.. وهو الذي قال:{ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وسبحانه قال:{وفي السماء رزقكم وما توعدون* فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون} [الذاريات: ٢٢- ٢٣].

وعز من قائل:{ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كلّ في كتاب مبين} [هود :١٦].

سبحانه قال:{ وقدّر فيها أقواتها} [فصّلت ١٠].

أتخاف أن يجيعك الله..؟ وأنت لا تنظر ماذا قدّمت.. ماذا فعلت من عمل لأجله..؟؟ يجب عليك أولا الصدق مع الله.. أصدق الله يصدقك.. تب لله صادقا يكفيك كلّ ما أهمّك.. { ومن يتق الله يجعل له مخرجا*ويرزقه من حيث لا يحتسب} [الطلاق:٢-٣].

واعلم أن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته..

٣- التبرؤ من الحول والقوة:

أن تتبرأ من كل حول وقوة.. وأن تستشعر الإعانة والمعية.. وحسن الظن بـ الله سبحانه وتعالى.. إنّ كلّ صعب بحول الله وقوته يصير سهلا.. فإذا استعنت بالله أعانك.. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.. فهو قادر على أن تبيت وأنت تحب المعاصي وتصبح وأنت تكرهها.. وما يدريك..

إنّ التبرؤ من الحول والقوة أن تدع حولك وقوتك.. عزيمتك وهمّك وأن تستعين بالملك القادر.. القاهر.. أن تستعين به..

لما هدّد شعيب:{ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنّك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا، قال أولو كنا كارهين* قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجّانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علما، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} [الأعراف: ٨٨-٨٩] هكذا تتبرأ من الحول والقوة بقول على الله توكلنا...

انتهت القضية.. اصنعوا ما شئتم قالها نوح من قبل { فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثمّ اقضوا اليّ ولا تنظرون} [يونس:٧١].

وقالها هود عليه السلام:{ فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون* إني توكلت على الله ربي وربكم} [هود:٥٥-٥٦].

كما قلنا من قبل إن نواصينا ونواصي أعدائنا في يد ملك واحد.. في يد رب واحد.. يصنع بنا وبهم كيف يشاء.. لذلك تبرأ من حولك وقوتك واستشعر معية الله {وهو معكم أين ما كنتم } [الحديد:٤] بعلمه وإحاطته وحوله وقوته معك {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} [البقرة :١٨٦].. وقال صلى الله عليه وسلم:" احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك". أخرجه الترمذي (٢٥١٦) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وقال حسن صحيح.

أيها الأحبة في الله: لاستشعار المعية انظر وقارن بين قول الله عز وجل:{ أرأيت إن كان على الهجى* أو أمر بالتقوى* أرأيت إن كذّب وتولّى* ألم يعلم بأن الله يرى} [العلق: ١١-١٤].

في مقابلها لما قال موسى عليه السلام لربه:{ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى* قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٥-٤٦].

قارن بين الآيتين: في الأولى{ ألم يعلم بأن الله يرى} [العلق:١٤] على سبيل التهديد والوعيد، وفي الأخرى على سبيل تثبيت القلب وإطمئنانه والركون إليه وصدق اللجوء إليه..

في حال المعصية تتذكر:{ ألم يعلم بأن الله يرى} أي سينتقم إن لم ترجع في الثانية حال كونك تتوب تتذكر

{ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} معية رحمة وإعانة وتوفيق وتسديد وهداية..

العائق الثالث من عواءق التوبة: الاعتذار والتعلل والبحث عن المبررات:

من أخطر عوائق التوبة تزيين الشيطان عندما تقول لإمرأة إنّك متبرّجة لم لا ترتدين الخمار.. تقول لك إنها ظروف إنّ زوجي لا يرضى وأبي لا يرضى.. وهذا هو البحث عن المبرر.. وإذا سألت حليق اللحية: لم تحلقها..؟ يقول: طاعة الأب.. وبرّ الوالدين فرض.. مبررات.. إنه الهوى.. أو ما يسمى بالمنطق التبريري وهو أكبر مرض يواجه شباب الصحوة..

تزيين الشيطان:{ أفمن زيّن له سوء عمله فرءاه حسنا} [فاطر:٨] نجد هذا يطيل ثوبه ويقول إنه لا يطيله بسبب الكبر.. وإذا كانت الموضة تأمر بأن يكون رداء الرجل حتى الركبة لاتبعها الجميع ويتناسوا قول النبي صلى الله عليه وسلم عندما يقول إسبال الثوب، إسبال في النار.. فههنا تخرج علينا المبررات.. هذا هو تزيين الشيطان..

والعلاج الدافع لهذا السبب: طلب العلم، واتهام النفس.

العائق الرابع: الاغترار بستر الله وتوالي نعمه.

فإذا أذنب العبد الذنب وستره الله.. فيظن أن الستر إنما كان بحسن تخطيطه.. ولم يفكر أن القضية ليست بحسن التخطيط وإنما القضية بستر الحلم عليه..

وعلاج هذا الخوف من العقوبة بهتك الستر المسبل عليك.. والعلم بأن الإمهال استدراج قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:" إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحبّ وهو مقيك على معاصيه فاعلم إنما ذلك منه إستدراج" أخرجه الامام أحمد (١٦٨٦٠) في مسند الشاميين، وقال الشيخ الألباني رحمه الله إسناده جيد "مشكاة المصابيح" (٥٢٠١).

وقال تعالى:{ فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون* وأملي لهم، إنّ كيدي متين} [القلم:٤٤-٤٥]. لله المثل الأعلى لكننا سنطرح هنا مثالا.. بموظف دخل في مرة ووجد نقودا في درج المكتب الخاص للمدير فأخذها.. فأخذ الشك المدير فيه فماذا يعمل؟

إنه في مرة أخرى يضع نقودا في نفس الدرج.. ويتغافل حتى يضع الموظف يده في الدرج لأخذ النقود فعندها يمسكه ويقول إنه ما فصله من عمله في المرة الأولى إلا لعدم التأكد..

إنّ هذا مثال الاستدراج ولله المثل الأعلى.. فتجد الشاب قد فعل كذا وكذا وستره الله.. ويطلب من الله الرزق فيعطيه.. وقد قلنا من قبل وحذرنا.. فإياك أن تظن أن إجابة الله لدعائك كرامة.. فقد يعطي الله العبد ما يطلب وهو يكرهه ليكون فيه هلاكه..

أليس الله قد أجاب إبليس دعوته وهو أبغض خلقه إليه.. عندما قال له إبليس:{ قال ربّ فأنظرني الى يوم يبعثون* قال فإنك من المنظرين} [الحجر: ٣٦-٣٧].

فأنت تطلب الرزق.. والزوجة الجميلة.. الطيبة.. والوظيفة المريحة.. فيعطيك وعندها تظن أن الله يحبك.. ألا ترى معاصيك ومخازيك.. ألا تتدبر قول الله تعالى:{ إنما نملي لهم ليزدادوا إثما} [آل عمران: ١٧٨].

واستمع لقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنّ الله يعطي الدنيا لمن يحبّ ومن لا يحبّ".

فانظر الى الدنيا لقد أعطاها الله للكفرة والفاسقين أيعني ذلك أنه يحبهم.. أبدا.. فخف من الله قدر قربه منك.. وارجوه قدر قربه منك.. ولا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون.

العائق الخامس من عوائق التوبة: تعلق الذنب بأحكام يخشى العاصي منها بعد التوبة:

فإن الشاب قد يزني.. وهو قد سمع ان من زنى يزنى به ولو في جدار بيته فيقول.. إذان لم أتوب.. فإذا سمع قول الله {الزاني لا لاينكح إلا زانية } [النور:٣] فيقول إذن لن أتزوج فإنّ من أتزوجها لا بد وأن تكون زانية ونسي قول الله سبحانه وتعالى:{ ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام:١٦٤] المقصود أن القلب قد يتعلق بأحكام.. فقد يظن أنه لو تاب سيرجم ويقام عليه الحد فيقول دعني مع الذنوب إذن.. من سرق مالا يؤمر بعد التوبة أن يرد المظالم..

فإذا لم يستطع قال لك دعني فلا فائدة ولكن لا يجب الاستسلام لتلبيس إبليس الذي يصنع من الذنب خمدقا يحاصرك فيه فلا تخرج من الذنب أبدا فيقول هل ستتوب.. إنّك لن تستطيع.. إنّك لا تصلح للتوبة.. ولا بدّ أن ننسى قول الله تعالى:{ إنّ الله يغفر الذنوب جميعا} [الزمر:٥٣] وأنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده وقد قال سبحانه وتعالى { ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} [الحجر: ٥٦] فلا تقنطوا من رحمة الله والتوبة تجب ما قبلها.. قال ربنا { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} [الزمر:٥٣].

العائق السادس من عوائق التوبة: الابتلاءات التي تقع على التائب بعد التوبة:

يقول ربنا تبارك وتعالى:{ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون* ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين} [العنكبوت ٢-٣] لا بد هنا من العلم بأنك عندما تتوب سيعاديك أهلك.. ستجد نفسك بعد ان كنت حليقا.. ترتدي أحد الموضات.. متعطرا يتهافت عليك الناس في الوظائف.. وعندما تبت الى الله ورجعت اليه فأعفيت لحيتك ولبيت القميص الأبيض والعمامة تبحث عن عمل فلا تجد.. فعندها يجب أن تتذكر قول الله تعالى عندما يقول:{ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير إطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه وخسر الدنيا والآخرة} [الحج:١١]. ستجد

العداء ن زملائك في العمل المدير مثلا قد تنافقه عندما شعرت أن النفاق هو العملة الرابحة أما الآن فإذا دخلت قلت السلام عليكم.. يقول اللهم اكفنا شرّ هذا النهار.. وهكذا النفاق الاجتماعي وعلى ذلك فقس..

المقصود ستجد العداء من المدير والزملاء.. الهل والأقارب.. الزوجة والأصدقاء.. الجيران.. عداء من جميع الجبهات.. قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: ليتني أكون معك يوم يخرجك قومك فقال له مرتاعا:" أومخرجيّ هم"؟ قال: نهم.. لم يأت رجل قط بما جئت إلا عودي. أخرجه البخاري (٤) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٦٠) كتاب الايمان.

هذا هو محمد الصادق الأمين.. اما عن قوم صالح فقد قالوا:{ ياصالح قد كنت فينا مرجوّا من قبل هذا} [هود:٦٢].. كنا نحبك.. ماذا جرى لك لترافق المتطرفين.. أجننت.. فحين يرى العداء يفاجأ بأن الدنيا قد اشتعلت من حوله فيعود من حيث أتى.. ولكن اعلم قول الله تعالى:{ ولينصرنّ الله من ينصره} [الحج:٤٠]. هذه سنّة الله التكوينية أن يكون العداء في البداية ثم يكون ظهور الحق، قال الامام الشافعي:" لا تمكين حتى تبتلى" الكل سيعلم أنك على حق.. واعلم إنك إما ستكون شهادة حق للاسلام وإما أن تكون شهادة زور ضد الاسلام حين تعود لتلك الشرور والمعاصي..

قلنا مرارا وتكرارا إنّ إنتصار المسلمين يوم حورصروا فيالشعب ثلاث سنين لم يكن أقل من انتصارهم في غزوة بدر لأن المشركين حين رأوا الثبات قالوا إن المسلمين على حق.. وكذلك فعندما يرون منك الثبات سيقولون إنّ الملتزمين على حق.. فإياك أن ترجع، واستعن بالله واثبت.

العائق الأخير: العصرة التي تصيب قلب التائب:

يقول ابن القيّم في كتاب " طريق الهجرتين" ص ٣٤٠ دار الحديث، ها هنا دقيقة قلّ من من يتفطن لها إلا فقيه في هذا الشأن.. رحم الله ابن القيّم ورضي عنه.. قال وهي أن كل تائب لا بد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه.. من همّ أو غم.. من ضيق أو حزن.. يجب أن تشعر بهذه العصرة عندما تتوب.. الخوف من أن تكون قد ضللت الطريق.. فأنت لا تعرف جوانب الطريق.. لا تدري أوله ولا تعلم الى أين يفضي بك آخره.. ويقول ابن القيّم: ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه.. فقد كانت الذنوب محبوباته.. أنيسته في وحشته.. فعندما يتوب سوف يفقد هذا الأنيس.. سوف يفقد أشياء كان يحبها.. سيتألم لفراق عيوبه التي لازمته ردحا من الزمان.. فينضغط قلبه وينعصر لذلك ويضيق صدره.. فأكثر الخلق يتوبون ثم ينكثون على أعقابهم ويعودوا الى المعاصي لأجل هذه المحبة للمعاصي.. والعالم الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم..

إنّ هذه العصرة دليل على حياة قلبك وقوة استعداده.. لو كان قلبك ميتا واستعدادك ضعيفا لما انعصر.. واعلم أن الشيطان لص الإيمان.. واللص إنما يقصد المكان المعمور.. بمعنى أن

يحاول سرقة الايمان من القلب المعمور بالإيمان.. إنه لا يذهب الى المقهى أو الى الملهى.. فمن يجلس هناك ليس في قلبه ما يسرق.. إنما يقصد المكان المعمور من اجل السرقة..

لما قيل لإبن عباس إنّ اليهود يقولون نحن لا نوسوس في الصلاة.. قال: سبحان الله كيف يوسوس الشيطان لشيطان.. هم الشياطين.. والشيطان لص الإيمان.. والشيطان إنما يقصد المكان المعمور أما المكان الخرب فلا يرجو أن يظفر منه بشيء.. فإذا قويت المعارضات الشيطانية.. قويت العصرة.. فيوسوس لمن لبست النقاب.. ما الذي دفعك لهذه الفعلة الشنعاء.. أما انتظرت حتى تتزوجين.. ويوسوس لمن التزم وأعفى اللحية أما كنت انتظرت قليلا قبل الالتزام حتى كونت مستقبلك من السرقة.. المقصود أن هذه العصرة وسوسة الشيطان إذا دخل الشيطان ليوسوس دل على أن في قلبك من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه..

إنّ قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضته وضده..

الإنسان القوي إما أن يكون رأسا في الخير أو رأسا في الشر.

إنّ النفوس الأبية القوية إذا كانت خيرة صارت رأسا في الخير وإن كانت شريرة صارت رأسا في الشر ولما كانت رأسا في الشر حرص الشيطان على ألا تبقى في الخير فتحصل قوة مجاذبة بينك وبين الشيطان.

فإنه بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب زيادة انشراحه وطمأنينته دليل على حرص الشيطان عليك..

وهذا دليل قوة إيمان لذلك ينعصر قلبك لأنه لو لم يكن فيه إيمان كان فورا قد عاد من حيث أتى فلذلك ينبغي أن تعلم أن ثباتك وعزمك سيوجب لك بعد النصر انشراحا وطمأنينة..

كلما عظم المطلوب كثرت العوارض وهذه سنة الله في الخلق وانظر الى الجنة وعظمها.. انظر في المقابل الى الموانع والقواطع التي حالت دونها.. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" حفّت الجنة بالمكاره" مسلم (٢٧٢٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (٢٥٥٩) كتاب صفة الجنة. حتى أوجبت أن ذهب من كلّ ألف رجل واحد يدخل الجنة وقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي " يا آدم اخرج بعث النار فيقول آدم وما بعث النار يا رب يقول الله سبحانه وتعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة"..

فما السبب؟؟

السبب أن الجنة قد حفت بالموانع والقواطع.. انظر الى محبة الله سبحانه وتعالى والانقطاع اليه والتبتل اليه وحدع والأنس به وحده.. انظر الى محبته واتخاذه وايا ووكيلا وكافيا

وحسيبا.. هل يكتسب العبد أشرف من هذا.. انظر الى القواطع والحوائل المانعة دون ذلك.... هل الطرق الموصلة الى محبة الله سبحانه وتعالى بهذه السهولة.. إنّ هذا غير ممكن.. إنّ هذه الطرق تحتاج الى الكثير من المجاهدة لذا ينبغي أن تنتبه الى هذا الأمر.. انتبه الى تلك العصرة الحادثة بالتوبة..

فلما كانت التوبة من أجلّ الأمور وأعظمها نصبت عليها المعارضات والمحن ليتميز الصادق من الكاذب.. وتقع الفتنة ويحصل الابتلاء ويتميز من يصلح ممن لا يصلح.. قال سبحانه:{ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم} [آل عمران: ١٧٩].

فاصبر على تلك العصرة قليلا.. تفضي بك الى رياض الأنس وجنات القدس.

يقول ابن القيّم:

ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت به الى رياض الأنس وجنات الانشراح وإن لم يصبر { انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين} [الحج:١١].

فاصبر أخي في الله على تلك العصرة ولا تهتم بها.. وتأمل نصر الله بعد ذلك فهذه العصرة لا بد منها.. وهي علامة من علامات الصحة.. فليطمئن قلبك.. وانطلق .. وانطلق..

ما هي أركان التوبة

أولا: الاخلاص: اللهم ارزقنا الاخلاص يا رب:

الإخلاص أن تتوب خوفا من الله وتعظيما لحرماته وإجلالا له وخشية من سقوط المنزلة عنده وخشية البعد والطرد عنه الحجاب عن رؤية وجهه في الدار الاخرة.

ثانيا: الاقلاع:

أقلع عن الذنب فورا وبدون ممطلة.. فإنك إن أقمت على الذنب وقلت يا رب تب عليّ.. فيرد عليك الكريم أقلع عن الذنب وأنا أتوب عليك..

ثالثا: الندم:

إنّ الندم يحصل بمطالعة الجناية.. وهذا يكون بتعظيم الحق جل جلاله ومعرفة مقامه.. ومعرفة ذاته وصفاته والتعبد اليه بها.. ومعرفة النفس وإنزالها منزلتها ومعرفة أن سبب كلّ شر يقع فيه ابن آدم فمن نفسه.. وتصديق الوعيد..

هذه هي الثلاثة التي يحصل بها الندم:

(١) معرفة الله.
(٢) معرفة النفس.
(٣) تصديق الوعيد.

ولأن عماد التوبة على الندم فسنقف هنا قليلا لنتأمل هذه الأمور الثلاثة:

(١) تعظيم الحق: فإذا أردت أن تعرف عظم الذنب.. فانظر الى عظمة من أذنبت في حقه.. أكبر آفة وقع فيها أهل عصرنا.. وأكبر معصية ارتكبتها قلوب أمتنا... أن زالت هيبة الله من القلوب.. هذه هي المأساة.. أننا صرنا نخاف من البشر أكثر من خوفنا من الله.. ونستحيي من البشر أعظم من حيائنا من الله.. ونرجو البشر بأعظم من رجائنا في وجه الله.. لذا لما هان الله علينا هنّا عليه.. والجزاء من جنس العمل...

أيها الاخوة.. إن تعظيم الحق ألا يرى في قلبك سواه. ومن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته.. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه.. فينبغي أن يعظم الله في قلبك..

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

واستجلاب تعظيم الرب.. أن تعرف الله سبحانه وتعالى.. وهو سبحانه يتعرف الى العباد في قرآنه.. وعلى لسان نبيه.. بصفات ألوهيته تارة.. وبصفات ربوبيته تارة اخرى..

فمعرفة صفات الالهية.. توجب للعبد المحبة الخالصة.. والشوق الى لقائه.. والأنس والفرح والسرور به.. هذا مما يوجبه النظر في صفات الألوهية.

مثل الصفات التي توجب عبادته جل جلاله. صفات الأمر والنهي.. صفات العهد والوصية.. صفات إرسال الرسل.. وإنزال الكتب والشرائع.. هذه تنبعث منها قوة الامتثال

والتنفيذ.. والتبليغ لها والتواصي بها.. والتصديق بالخبر والامتثال بالطلب.. والاجتناب للنهي..

الصفات التي تجلب التعبد أن يسر في خدمته.. وينافس في قربه.. والتودد اليه بطاعته.. ويلهج لسانه بذكره.. ويفر من الخلق اليه.. ويصير الله وحده.. هو همه دون سواه.

أما شهود صفات الربوبية:

فإنها توجب التوكل عليه.. والافتقار اليه.. والاستعانة به.. والذل والانكسار له.. وكمال ذلك " وهو الشاهد الذي أرجو أن يتوصّل اليه" هو ما ذكره ابن القيّم في كتابه القيّم "الفوائد".

" أن يشهد ربوبيته في إلهيته.. أن تشهد حمده في ملكه.. وعزه في عفوه.. وجكته في قضائه وقدره.. ونعمته في بلائه.. تشهد عطاءه في منعه.. بره وإحسانه ورحمته في قيوميته.. أن تشهد عدله في انتقامه.. وجوده وكرمه في مغفرته.. أن تشهد ستره وتجاوزه.. وحكمته ونعمته في امره ونهيه.. أن تشهد عزه في رضاه.. وغضبه وحلمه في إمهاله.. وكرمه في إقباله.. وغناه في إعراضه.. أن تعرف الله.. فإذا عرفته عظم في قلبك.

ثم يعلق ابن القيم فيقول: من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التوقير والتعظيم لك من الناس.. وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره.

وعلينا أن ننتبه الى هذه الفائدة الغالية:

فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال.. ثم لا توقر الله فلا تبالي أن يراك سبحانه وتعالى عليها.. أيحب احدكم أن يراه الناس وهو يزني..؟؟ إذن فكيف ترضى أن يراك الله على هذه الحالة..؟؟ ألا تستحيي منه؟؟

وصدق الله تعالى:{ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذا يبيّتون ما لا يرضى من القول، وكان الله بما يعملون محيطا* هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة النيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا} [النساء: ١٠٨-١٠٩].

والله علمنا.. قال لنا سبحانه وتعالى.. لينبهنا الى تلك القضية أتم تنبيه.. لفت نظرنا الى شيء نستشعره.. شيء موجود عندنا وجودا ماديا.. لأننا ننسى استشعار نظر الله ومراقبة الله.. فقال جل جلاله: { وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون* وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين* فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين} [فصّلت: ٢٢-٢٤].

لما كانت نفس الانسان ضعيفة.. واستشعاره معية الله صعبا ذكرهم الله بأن معهم شهودا: سمعكم، وأبصاركم، وأيديكم، وأرجلكم، وبطونكم، وفروجكم.. نعم ستشهد عليك.. فإذا اردت أن تعصي الله فاذكر ان الله معك يسمعك ويراك {ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم} [المجادلة:٧].

فإن لم تستشعر تلك القضية.. وعجز قلبك عن استحضار سمع الله وبصره.. فتخشاه.. فتخافه.. تخشى بطشه.. تخاف انتقامه.. تستحيي أن يراك على العيب.. عليك رقيب.. وهو الذي يسترك.. فوقك قاهر.. وعليك قادر.. ومنك قريب.. يستطيع أن ينتقم ويأخذ حقه.. ولكنه الحليم.. والحيي الستير.. جل جلاله.. وعجز قلبك عن استحضار تلك المعية.. فام تستطع أن تختفي من الله.. ولا أن تستتر منه.. فتذكر أن معك عينا ستشهد عليك.. وأذنا تشهد عليك.. ويدا ستشهد عليك.. ورجلا ستشهد عليك..

فإنك إن استطعت أن تستتر وتختبئ.. فتختبئ من أعضائك.. وتتوارى منها.. فافعل.. فإن لم تقدر فاترك المعصية خوفا من ذي الجلال جل جلاله..

يا من يعاني مأساة الذنوب اختبئ من الله فلا يراك عليها.. فإن نسيت نظر الله وغلبتك شهوتك.. فأعمت عين بصيرتك.. فاختبئ من يدك التي تعصي.. إذا تحركت عينك للنظر فتذكر أنها ستشهد عليك يوم القيامة.. وإذا تحركت رجلك لتعصي فاعلم أنها وكل جوارحك عليك شهود يوم تلقى الله عز وجل..

يا من يؤذي الناس بلسانه.. تذكر أن الله سميع.. يسمعك وسيحاسبك.. فإن نسيت الله.. فتذكر شهادة الجوارح عليك.. تذكر شهادة لسانك وأذنك..

هنا إذا كملت عظمة الله في القلب منعته من المعصية.. إنّك تريد أن يوقرك الناس.. وأنت لا توقر الله.. كيف ذلك... قال تعالى: { ما لكم لا ترجون لله وقارا} [نوح:١٣]، أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه.. والتوقير: هو التعظيم.. ومنه قوله تعالى: { وتعزّروه وتوقّروه} [الفتح:٩] قال الحسن: في تفسير قوله تعالى: { ما لكم لا ترجون لله وقارا} [نوح:١٣] أي: مالكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرونه..

قال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم.

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: لا ترون لله طاعة.

قال عبدالله بن عباس: أي لا تعرفون عظمة الله تعالى.

هذه المعاني ترجع كلها الى معنى واحد أنه لو عظموا الله وعرفوه.. أطاعوه وشكروه.. ولم يعصوه.. فطاعته سبحانه.. واجتناب معاصيه.. والحياء منه.. بحسب وقاره في القلب..

ما هي علامات توقير الله:

من علامات توقير الله سبحانه وتعالى:

(١) ألا تذكر اسمه مع المحقرات:

قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عند ما يستحي من ذكره.. فانظر الى مدى توقير السلف لربهم.. كانوا يستنزهون أن يوضع اسم الله بجوار ما يستقبح ذكره.. فيقرن اسمه به.. كأن يقول الرجل: قبّح الله الكب والخنزير.. فيوقرون الله ان يوضع اسمه مع هذه الحيوانات.

(٢) ألا تنسب الشر اليه:

إنّ من عقيدتنا أن الخير والشر من الله.. لكننا لا ننسب الشر الى الله تأدبا قال صلى الله عليه وسلم:"{ لبيك وسعديك الخير كله في يديك.. والشرّ ليس إليك" مسلم (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وقال إبراهيم عليه السلام:{ والذي هو يطعمني ويسقين* وإذا مرضت فهو يشفين} [الشعراء: ٧٩-٨٠] فلم يقل: وإذا أمرضني.. وإنما نسب الشر الى نفسه تأدبا مع الله.

وقال مؤمنو الجن:{ وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} [الجن:١-]. فعند الرشد ذكروا ربهم.. وعند الشر بنوا الفعل للمجهول.

لكن أهل عصرنا على العكس.. تجد الرجل منهم يقول يا كاسر كل سليم يا رب..

فمن إذاً الذي يجبر المكسور ..؟ وكيف ينسب الشر الى الله...

وتجد من يقول الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.. لماذا تذكر الله بالمكروه.. إننا لا نناقش هنا حرمة هذه الكلمة من حلها.. ولكننا نناقش السبب الذي من أجله نسبت الشر الى الله.. وكيف أن السلف كانوا يجلونه ويبجلونه لدرجة أنهم لا يذكرون بجوار اسم الجلالة أي لفظ يرون أنه لا يناسب عظمته عز وجل..هذا وإن كان الخير والشر منه سبحانه جل وعلا.

(٣) من وقاره: ألا تعدل به شيئا من خلقه لا في اللفظ ولا في الفعل:

فلا تقل: ما شاء الله وشئت.. وهذا لأنه عندما قالها رجل لرسول الله قال صلى الله عليه وسلم :{ أجعلتني لله ندّا؟" البخاري (٧٨٧) الأدب المفرد.

(٤) من توقيره جل وعلا ألا تشرك معه شيئا في الحب والتعظيم والإجلال:

قال تعالى:{ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله} [البقرة: ١٦٥]... سماهم مشركين.. كما في الطاعة.. فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله.. لا.. وإنما طاعة الله مطلقة في كل شيء.. وطاعة المخلوق مقيدة بالمعروف فالأب والأم والزوج والزوجة ومديرك في العمل.. العرف والتقاليد والمجتمع.. طاعة كل هؤلاء مقيدة بقول النبي صلى الله عليه وسلم:
" إنما الطاعة في المعروف" البخاري (٧١٤٥) كتاب الأحكام. " ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" مسند الامام أحمد (١٠٤١) مسند المبشرين بالجنة.

فلا تجعل طاعتك لشيء لطاعة الله.. مهما كلفك ذلك..

(٥) من توقيره جل وعلا ألا تجعل له الفضلة:

إنّ آفة أهل عصرنا ـ حتى الملتزمين منهم ـ أنهم يعطون الله الفضل: إذا بقي لديه وقت ليقوم الليل فيه.. قام وإلا تركه.. يجعل لله الفضلة.. إذا بقي عنده وقت للأذكار قالها.. وإلا غفل عنها.. وهكذا..

وقد قال تعالى:{ ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون} [البقرة:٢٦٧].

هذا ليس من توقير الله.. بل من توقير الله أن تقتطع له من أعز الأوقات وقتا.. ومن أعز الأموال مالا.

فينبغي ألا تجعل لله الفضلة في الوقت.. ولا في الجهد.. ولا في الصحة.. ولا في المال.. ولا في الكلام والذكر.. فما الذي يشغلك..؟؟

أهي الدنيا..؟ والله ما خلقت لها.. { وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات:٥٦].. وقد يندهش بعض الناس حين نقول: ينبغي أن تكثر من الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتنفل.. فيقول: أين الوقت الذي يسع كل هذا..؟ وهل خلقت لغير هذا..؟ ثم إنّ البركة من الله..

اللهم بارك لنا في أوقاتنا..

والإعانة والتوفيق من الله.. إنك إذا ظننت أنك تقوم بحولك وقوتك. فأنت فاشل مخدوع.. أما إذا اعتقدت بأنك تستعين بالقوي المتين.. فإنه يعينك ويقيمك ويبارك لك..

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

(٦) من التوقير: ألا تقدم حق المخلوق على حق الله:

قال تعالى:{ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا ين يدي الله ورسوله} [الحجرات: ١].. أي لا تقدم أمرا بين يدي أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.. ولا حبّا بين يدي حب الله ورسوله.. لا تجعل أمام الله أحدا بل أول شيء هو الله..

قرأت استطلاعا للرأي على طلبة إحدى الجامعات.. عن المثل الأعلى والقدوة وأهم المحبوبات فوجدوا أن الترتيب كما يلي:

١) الفنانين
٢) لاعبي الكرة
٣) المشاهير من الاعلاميين
٤) الله ورسوله

فإذا كان الله في التفضيل هو الرابع ترتيبا فأين يكون التوقير..؟ أين يكون الحب والإجلال..؟

أين يقع الأمر بأن تجعل الله ورسوله قبل كل شيء.. في الطاعة.. الحب.. الخوف.. الرجاء.. التوكل عليه... الإنابة إليه..؟

(٧) من توقيره جل وعلا: أن تختار حده وجنبه وناحيته من ناحية الناس وجنبهم:

قال تعالى:{ ومن يشاقق الله والرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء ١١٥].

وقال تعالى:{ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنّ له نار جهنّم خالدا فيها، ذلك الخزي العظيم} [التوبة: ٦٣].

ومعنى: {يحادد} أي: أن يكون الله ورسوله في حدّ.. والمخلوق في حدّ آخر.. فكن مع الله يكن معك.. بل كن في الحدّ والناحية التي فيها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.. وإن كنت وحدك.

(٨) من توقير الله: بذل البدن والقلب والروح في خدمته تعالى:

كان سلفنا رضوان الله عليهم ينتصبون في الخدمة.. فلا يرعون السمع إلا لكلام الله ولا يسلمون القلب إلا لأوامر الله.. فإذا كانوا في الصلاة فلا تسل عن الخشوع والخضوع.. وإذا كانوا في الصيام فلا تقل عن الإخلاص والورع.. وغيره من الذكر والصدقة.

أما حالنا اليوم فيندى له الجبين خجلا.. فإذا كلمك أحد الناس.. انتبهت اليه بكل جوارحك.. وإذا وقفت بين يدي الله وقفت بجسدك فقط.. فعقلك وقلبك في شغل عنه.. وتأمل ذلك في صلاتك.. صيامك.. وغيرها من العبادات..

(٩) من توقير الله: ألا تقدم مراد نفسك على مراد ربك:

ما لم توقر الله سقطت من عين الله.. فلا يجعل الله لك في قلوب الناس وقارا ولا هيبة.. بل يسقط وقارك وهيبتك من قلوبهم.. وإن وقروك مخافة شرك.. فذاك وقار بغض.. لا وقار حب وتعظيم.

(١٠) من وقاره جل وعلا: الحياء من أن يطلع على قلبك فيرى منك ما يكره:

فإذا اطلع الله على ما في قلبك.. لا يجد إلا الغرور والعجب.. وحب الدنيا وحب المعاصي.. واستثقال الطاعات.. أفلا تستحي من الله... أخرج خذا من قلبك حتى لا يراه الله في قلبك..

المصيبة أن يستحي العبد من الناس ولا يستحي من الله.. قال تعالى:{ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: ٣٧] وقال عز من قائل:{ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم} [النساء: ١٠٨].

تجد أحدهم يرى من يوقره فيلقي السيجارة من يده.. وينسى أن الله يراه.. يرى من يوقره فيتوارى وهو على الذنب.. ويواجه الله بالمعصية بلا حياء..

(١١) من وقاره: أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

(١٢) ومن وقاره: أن يكون همه الأول طلب رضا الله.

أخي في الله.. إنني أريد منك الآن أن تأتي بورقة وقلم.. وتبدأ في كتابة همومك الشاغلة.. وتضعها مرتبة حسب الأولويات.. وأنا أقصد الهم الذي يشغل بالك.. وتجري وتتحرك في نطاق هذا الهم.

أريدك أن تصدق مع الله.. لأنه من السهل أن تكتب أنك تحمل هم الاسلام.. ولا يخطر لك هذا على بال أصلا..

أريدك أن تنفرد بنفسك.. أن تتقي الله عز وجل.. وتنظر فعلا.. ما الذي يهمّك..؟

هل ستجد ما يهمك هو هم الاسلام .. هم العقيدة.. هم الدين.. أو أننا سنفاجأ بأن الهموم قد تشعبت.. هم الوظيفة.. هم الزواج.. طلب الرزق.. التعليم...

لا شك أن الاسلام سيأتي.. ولكن ربما في المرتبة الرابعة.. الخامسة.. وربما بعد ذلك.. هذا إن كنا صادقين.

وكل هذا نتيجة لعدم توقير الله في قلبك حق الوقار وحق التعظيم.

المطلوب أن يكون طلب رضا الله هو الهم الأول والأوسط والأخير.. بمعنى ان يكون الهم كله.. في كل مناحي الحياة.. هو طلب رضا الملك جل جلاله.. ومن جعل الهموم همّا واحدا كفاه الله همّه.

فهذا أول ما يصح به مطالعتك لجنايتك.. بتعظيم الحق وتوقيره.. فإذا عرفت الله حق معرفته.. بأسمائه وصفاته.. عرفت الله حق معرفته.. بتوحيد ألوهيته وتوحيد ربوبيته.. فإنه حين ذاك يعظم الله في قلبك.. ويقع وقاره في قلبك.. فإذا وقرت الله بقلبك.. عظمت عندك مخالفته.. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من دونه.. قال الله تعالى:{ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}. [الأنعام: ٩١] وقال جل وعلا:{ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون} [الزمر: ٦٧].

وقال سبحانه وتعالى:{ وما قدروا الله حق قدره، إنّ الله لقوي عزيز} [الحج: ٧٤].

بعد أن تحداهم ربما جل جلاله في قوله:{ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا الذباب ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب} [الحج: ٧٣].

نعم إنك حين تقدر الله حق قدره.. وتعرف أنه أنزل الكتب.. وأرسل الرسل.. وشرع الشرائع.. وخلق الجنة والنار.. أمر أوامر ونهى عن نواه.. وألزم عباده أشياء.. حاكم بالعدل.. قائم بالقسط.. جل جلاله..

حين تقدر الله حق قدره.. تعرف أنه ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا والله خلقها وعليه رزقها.. ويعلم مستقرها ومستودعها.. فبه سبحانه وتعالى وبإعانته وبإحيائه لها تعيش. أي دابة صغرت أم كبرت. على ظهر الأرض أو في السماء.. سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت.. جل جلاله.. قيّوم السموات والأرض.. به يقوم كل شيء.. ولا يحتاج الى شيء.. فهو العزيز.. وهو الغني.. حين تعرف الله وتقدره حق قدره.. تعلم أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا.. فبه بقاؤهما وبه دورانهما.. وبه حياة ما فيهما.. والمراد إليه جل جلاله.. فهو الأول والآخر .. {كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [الرحمن ٢٦-٢٧].

إذا كملت عظمة الحق في قلبك.. فإنك تستحيي وتخاف أن تعصيه وهو يراك.

فمطالعة الجناية : بكمال عظمة الله في قلبك.. أن تعرف عظمة من عصيت.. فتعظم المعصية.. فمن كملت عظمت الحق تعالى في قلبه.. عظمت عنده مخالفته..

ونضرب لذلك مثالا:

عن أنس بن مالك قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بإمرأة تبكي عند قبر.. فقال لها:" إتقي الله واصبري" فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي.. ولم تعرفه صلى الله عليه وسلم.. فقيل لها.. إنه النبي صلى الله عليه وسلم فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين.. فقالت: لم أعرفك.. فقال:" إنما الصّبر عند الصدمة الأولى". البخاري (١٢٨٣) كتاب الجنائز.

الشاهد: أنها لم تكن تعرف النبي صلى الله عليه وسلم.. فجهلت عليه.. قالت: إليك عني إنك لم تصب بمصيبتي .. فلما قيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم.. علمت أنها أخطأت.. فالذي يجهل عظمة الله ـ ولله المثل الأعلى ـ يجهل عليه.

فإذا عرفت الله.. عظمت المخالفة عندك.. لذلك فإن المؤمن ينظر الى ذنبه كأنه في أصل جبل.. يخشى أن يهوي فوق رأسه..

فاللهم عافنا من الذنوب والمعاصي.. رحماك بينا فإنك من تق السيئات فقد رحمته.. فاللهم اجعلنا من المرحومين..

هذه الأولى.. تعظم الجناية بمعرفتك الله.

(٢) معرفة النفس: باستقباح ما كنت عليه:

الثانية.. هي معرفة النفس.. هكذا دائما تقترن معرفة الله بمعرفة النفس.. ليخرج منها نوعين جليلين من العبودية.. محبة الله.. والازدراء على النفس..

يقول ابن القيّم:

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه.. فوقف بها عند حدها.. ولم يتجاوزه الى ما ليس له.. ولم يتعد طوره.. ولم يقل هذا لي.. وإنما يوقن أنه لله وبالله ومن الله...

كثير من الاخوة تجده يتهم نفسه.. يقول لنفسه: عاص مذنب مقصر.. قلبي أشد من الحجر.. لكنه في الحقيقة معجب بنفسه.. لا يسعى لإصلاحها.. فهذه معرفة لا تفيد.. إنما الذي يعرف نفسه يقف بنفسه عند درها.. ولا يتجاوزه الى ما ليس له.. لا يتعدى دوره.. هذا هو الذي عرف نفسه.. فتيقن أنه لله ومن الله وبالله.. فالله هو المانّ به ابتداء وإدامة.. بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه.

قال تعالى:{ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور: ٣٥].
{ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا} [الكهف: ٥١]
{هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا* إنّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سكيعا بصيرا} [الانسان: ١-٢].

إنك لم تكن شيئا.. من نطفة أوجدك.. بدون استحقاق منك.. بل محض كرم وجود منه سبحانه وتعالى.

انتبه..

إذا علم العبد هذا وتيقنه.. فعلم أن الله هو المان به ابتداءا وإدامة.. بلا استحقاق من العبد.. وبلا سبب منه.. حينذاك تذله نعم الله عليه.. فعندئذ يرى أن الفضل كله لله.. وأنه من عليه دون أن يستحق أي نعمة.. فيذل لله.. وكلما زاده الله نعمة.. ازداد بها ذلا.. حتى يصير أذل الناس لله.. وهذه أعلى درجة من درجات العبودية.. فتذله نعم الله عليه.. وتكسره.. كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها ولا منها خيرا البتة.. فلا يرى فيها خيرا أبدا.. وأن الخير الذي وصل اليه فهو لله وبالله ومن الله.

وهذه نتيجة علمين شريفين.. علمه بربه..وعلمه بنفسه..

علمه بربه.. وبره وغناه.. وجوده وإحسانه ورحمته.. وأن الخير كله في يديه.. وهو في ملكه يؤتي منه من يشاء ما يشاء.. ويمنع منه من يشاء ما يشاء.

ثم علمه بنفسه.. ووقوفه على حدها.. وقدرها.. ونقصها وظلمها.. فالعبد دائم التذكر لهذين الأمرين.. لا ينسب لنفسه فضلا قط.. إذا قرأ القرآن فمن الله.. إذا صام النهار فمحض فضل

من الله.. يعني توفيق وإعانة وقبول.. إذا قام الليل فبتوفيق الله.. وانظر لعله هناك من هو أعقل منك ولم يهده الله فلم يهتد..

فاحمد الله.. قال تعالى:{ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا} [الكهف: ١٧].

يقول ابن القيّم:

فإذا صار هذان العلمان.. ألا وهما: معرفة نفسك ومعرفة ربك صبغة لها لا صبغة على لسانها.

فكثير منا يقول بلسانه: والله أنا مقصر..مذنب.. عاص.. ادع الله أن يهديني.. أنا أريد أن أتعلم .. أريد أن أقوم الليل.. هذه صبغة اللسان.. أما صبغة القلب فعلمه بنفسه وعلمه بربه.. فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صبغة على لسانها.. علمت حينذاك أن الحمد كله لله.. والأمر كله لله.. والخير كله لله.. وأنه هو المستحق للحمد والثناء دونها ـ أي دون نفسه ـ وأن نفسه هي أولى بالذم والعيب اللوم.. ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله.. فإيصال العبد الى الله بتحقيق هاتين المعرفتين علما وعملا.. وانقطاع العبد عن الله بفوات هذين العلمين علما وعملا.. وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه عرف ربه.. فمن عرف نفسه بالجهل عرف الله بالعلم.. ومن عرف نفسه بالظلم عرف الله بالعدل.. ومن عرف نفسه بالعيب عرف ربه بالعز والجمال والكمال.. ومن عرف نفسه بالنقص عرف ربه بالعطاء والكمال..ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز.. ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالغنى.. ومن عرف نفسه بالمسكنة عرف ربه بالقوة والملك.. ومن عرف نفسه بالعدم عرف ربه بالجبروت.

وهكذا تعرف نفسك وتعرف ربك.. فإذا عرف نفسه وعرف ربه كان الله أحب شيئ اليه.. وأخوف شيء عنده.. وأرجاه له.. وهذه هي حقيقة الايمان العبودية.

يقول ابن الجوزي:

"والله لقد بكيت الليلة مما جنيته على نفسي بيد مفسي" نعوذ بالله من أنفسنا.. واها لك يا نفس.. النفس وما أدراك ما النفس.. أمّارة بالسوء.. ظلومة جهولة.. الإنسان وهذه نفسه.. إذا مسّه الشر جزوعا.. وإذا مسّه الخير منوعا.

الإنسان.. { وكان الانسان عجولا} [الاسراء:١١] {وكان الانسان قتورا} [الاسراء:١٠] {وكان الانسان أكثر شيء جدلا} [الكهف ٥٤] هذه نفسك.. جهول.. قتور.. حين ترى نفسك هكذا لا تعينك على عمل صالح أبدا.. تميل الى البطالة والكسل.. تميل مع الهوى وطول الأمل.. ترجو من الدنيا وتنسى الآخرة.. هذه نفوسنا والله.. إذا عملنا بعد أن جاهدنا تستأثر نفوسنا بأعمالنا.. فنعملها رياء وسمعة.. نعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا .. فإذا عرفت نفسك

أنها الحاملة على كل ذنب.. وأنها الدافعة الى كل معصية.. وأنها المانع في كل خير وعطية.. استعذت بالله من شرها.. وعرفت أن الخير بيد الله.. يؤتيه من يشاء.. وهو العزيز الحكيم..

نفسك إذا عرفتها. عرفت نفسك وعرفت الله.. عظمت المخالفة عندك.. نفسك انفرد بها لتوبخها.

يقول ابن القيّم:

وااسفاه من حياة على غرور.. وموت على غفلة.. ومنقلب الى حسرة.. ووقوف يوم الحساب بلا حجة.. وااسفاه.. واحسرتاه..

ثالثا: تصديق الوعيد:

اخي التائب..

مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنّم ـ اللهم قنا عذاب جهنم وأنت تبكي أبدا.. أبوابها مغلقة.. وسقوفها مطبقة.. وهي سوداء مظلمة.. لا رفيق يستأنس به.. ولا صديق تشكو اليه.. لا نوم يريح.. ولا نفس.. ولا موت يقضي على العذاب..

قال كعب: والله إن أهل النار يأكلون أيديهم الى المناكب من الندامة.

قال الله تعالى:{ ويوم يعضّ الظالم على يديه} [الفرقان: ٢٧] يعني من الندامة على تفريطهم وما يشعرون بذلك.

يا مطرودا عن الباب.. يا مضروبا بسوط الحجاب.. لو وفيت بعهودنا ما رميناك بصدودنا. لو كاتبتنا بدموع الأسف لعفونا لك عن كل ما سلف..

انظر الى وعيد ربك.. توعد الله أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة واطمأن بها.. وغفل عن آياته.. ولم يرج لقاءه.

فقال الله جل جلاله:{ إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون* أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون} {يونس: ٧-٨].

وفي اليقين من الوعيد:

يقول ابن القيّم:

"ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد... فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابا لا يرجى معه فلاح البتة"

اليقين إذا عمر به القلب وامتلأ به.. استنار القلب فيرى ويبصر وبذلك يعيش.. إن أشد ما يعانيه أهل عصرنا عمى القلب.. - إي والله -.. إن أدنا إذا ضعف بصره شيئا.. حزن حزنا شديدا.. ويهرع لمن يصنع له نظارة.. تكمل ما افتقد من بصره.. وأكثرنا إلا من رحم الله فقد عمي قلبه.. وهو لا يعلم.. فلا يعمل على أني يعيد بصيرة قلبه.. اللهم ارزقنا بصيرة في قلوبنا يا رب.

المقصود أيها الاخوة.. أن معنى التصديق بالوعيد حصول اليقين أن يصير هناك يقين في القلب.. فإذا خلا القلب من التصديق بالوعيد.. خرب خرابا لا يرجى معه فلاح البتة.

إن الآيات والنذر تنفع من صدق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة.. هؤلاء هم المصدقون بالإنذار المنتفعون بالآيات دون من عداهم.

قال تعالى: { إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة}[هود: ١٠٣].
وقال تعالى: { إنما أنت منذر من يخشاها} [النازعات: ٤٥].
وقال تعالى: { فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} [ق: ٤٥].

فأخبر سبحانه أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة. هم المصدقون بالوعيد.. الخائفون.. كما أنهم الممكنون في الأرض.

قال تعالى: { ولنسكننّكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد} [إبراهيم ١٤].

فإن الله تعالى تهدد وتوعد { ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجزى به لا يجد له من دون الله وليّا ولا نصيرا} [النساء: ١٢٣] وإنّ هذه الثلاثة تثمر الندم على ما فات.

رابعا: العزم على عدم العودة:

إن كثيرا من الناس يتوب وهو دائم القول: إنني أعلم بأني سأعود.. لا تقل مثله.. ولكن قل : إن شاء الله لن أعود " تحقيقا لا تعليقا".. واستعن بالله واعزم على عدم العودة..

بعض الناس يفت الشيطان في عضده.. يوهن له نفسه.. يخذله فيقول له: إنك لن تستطيع .. فيقول لا ضير في أن أتوب ثم أعود..

إنّ هذا الخاطر لا يجب أن يرد على خاطرك أصلا.. وإنما تب وأنت تعزم يقينا إنك لن تعود.

خامسا: خلع العادات:

عندما تتوب الى الله فإن العادات التي كنت عليها حين جاهليتك تشبه خيط المطاط.. إنه قد يذهب معك.. ولكنك ما زلت مشدودا اليه فإذا وقفت ولو للحظة جذبك فعدت مرة أخرى..

اخلع مسمار العادة من قلبك.. إنك عندما تريد نزع مسمار في جدار فإنك تبدأ في زعزعة المسمار ث بعدها تنزعه بسهولة.. فما عليك إلا أن تزعزع مسمار العادات في قلبك..

فإذا كانت لديك عادة النوم الكثير ـ مثلا تنام عشر ساعات يوميا ـ فابدأ بزعزعة هذه العادة بالتدرج في تركها.. مثلا أن تنام تسعة ثم ثمانية.. وهكذا..

وإذا كان من عاداتك كثرة الأكل.. فتدرج في التخلص من ذلك.. وهكذا.. إذا كنت متعود على كثرة الخروج والسمر والسهر مع الأصدقاء.. فاربط نفسك في المنزل واستأنس بربك.. وحاول أن تجد قلبك في الخلوة..

إن العادت هي العدو اللدود للعبادات.. لأن هذه العادات تربطك.. فكيف إذن يكون الانخلاع من هذه العادات؟ وبيان ذلك..

كيف تخلع العادات؟!

كلما كان تعلقك بالمطلب الأعلى أقوى كان انخلاعك من العادات أتم.. كيف؟

إنك مرتبط بعادات أرضية.. فتريد أن تسمو عن الأرض الى سماء الطاعة.. انظر الى تقنية الصواريخ.. إنها تحتاج لقوة دفع خارجة للصعود بالصاروخ والتخلص من الجاذبية الأرضية... فساعة أن يتخلص عن تلك الجاذبية الأرضية فإن الصاروخ يسبح في الفضاء الخارجي.. وهذا بالضبط ما تحتاجه أنت.. إنك تحتاج الى قوة دافعة كبيرة في البداية وبعدها تسبح في سماء الطاعة..

قال أحد السلف " عالجت قيام الليل سنة ثم تمتعت به عشرين سنة" وقال آخر " ما زلت أسوق نفسي الى الله وهي تبكي حتى انساقت اليه وهي تضحك" حاول.. حاول وستنتصر.. إنّ النصر مع الصبر..

سادسا: العلم بطرق الصبر عن المعصية:

يقول ابن القيّم في كتاب "طريق الهجرتين" (ص ٣٨١) إنّ الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عدة:

السبب الأول: علم العبد بقبح المعصية ودناءتها:

فإذا علم العبد بقبح المعصية ودناءتها وأن الله إنما حرمها صيانة للعبد عن الدنايا والرذائل.. فيتصبر عنها.. فأول شيء يجب معرفته أن شرب السيجارة قبيح وإطلاق البصر قبيح.. وشرب الخمر قبيح.. والزنا قبيح.. الى آخره.. فعندما تعلم بقبحها تتصبر عن مواقعتها، قال تعالى: { قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن} [الأعراف: ٣٣]. فهي فواحش قبل التحريم وبعده.. والشارع كساها بنهيه عنها قبحا الى قبحها.. فكان قبحها من ذاتها.. وازدادت قبحا عند العاقل بنهي الرب تعالى عنها.. وذمة لها.. وإخباره ببغضها وبغض فاعلها.. فيعلم ان الله ما نهى إلا عن أمر قبيح بالذات.. فيترك المعصية لقبحها ولدناءتها.. حفظا لنفسه وصيانة لها..

السبب الثاني: الحياء من الله:

فإن العبد متى علم بنظر الله اليه وأنه بمرأى من الله ومسمع.. فإن العبد يستحي منر به أن يراه وهو مقيم على المعاصي.. وهذا يستلزم أن تنفتح في قلبك عين ترى بها أنك أمام قائم أمام الله { ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: ٤٦].

السبب الثالث: مراعاة نعمة الله:

فإنّ مراعاة نعمة الله عليك وإحسانه إليك.. فترى أن الله يعطيك من نعمه وأنت تعصاه.. فهل هذا فعل الكرماء..؟؟

إنّ مراعاة نعم الله عليك بأنه هو الذي خلقك ورزقك وسترك وأعطاك ومكن لك وأعانك.. ثم بعد ذلك تعصيه..؟؟ فكيف تكون..؟؟ وقد قال الله تعالى: { إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم}[الرعد:١١] {ذلك بأن الله لك يك مغيّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميع عليم} الأنفال ٥٣] وأعظم النعم هي نعمة الإيمان والذنوب تزيل النعم وتسلبها.

قال بعض الصالحين: أذنبت ذنبا فحرمت قيام الليل سنة.. فهنا تعلم أنك إذا لم تراع نعم الله عليك فإنه يذهب عنك الحول والقوة للقيام بالطاعة..

وقال بعضهم: أذنبت ذنبا فحرمت فهم القرآن.

وقال البعض: أذنبت ذنبا فمنذ أربع سنين وأنا الى الخلف.. لأنه أذنب ذنبا.. فراع نعم الله عليك واعلم أن أعظم النعم نعمة الايمان.

قال تعالى: { بئس الاسم الفسوق بعد الايمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} [الحجرات: ١١].

السبب الرابع: الخوف من الله:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة فإذا لم تستح من الله.. فاخش أن يخسف بك الأرض.. أن ينتقم منك.. اخشاه أن يفضحك.. اخش عقابه.. فكفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار به جهلا..

السبب الخامس: محبة الله:

إن الله لو أحبك لعصمك.. كما قيل: هانوا عليه فعصوه.. ولو عزوا عليه لعصمهم..

فهل إذا أحببت أحدا تعصيه..؟؟ مستحيل.. إنما أنت تعصيه لأنه تحب المعاصي أكثر مما تحب الله.. وتراعي نظر الناس اليك ولا تراعي نظر الله.. وكفى بذلك خذلانا.. فهل تحب إنسانا ولا تحب الله..؟؟ أتحب المال أكثر مما تحب الله..؟؟

إن محبة الله من أقوى الأسباب المعينة على الصبر عن المعاصي.. فإن المحب لمن يحب مطيع.. وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى إن شاء الله..

وفرق بين من يحمله على ترك المعصية الخوف من السوط ومن يترك المعاصي لأنه يحب الله.. وعقيدة أهل السنة والجماعة ـ وهي عقيدتنا ـ أن نعبد الله حبا له.. وخوفا من ناره.. ورجاء كرمه أن يرزقنا جنته..

السبب السادس: شرف النفس وذكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها:

النفس الشريفة لا تفعل المعاصي.. لأن هذه المعاصي تحط من قدرها وتخفض من منزلتها التي رفعها الله بها.. وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة والرعاع.. فانظر الى المعاصي هل

يقترفها أصحاب النفوس الأبية.. النفوس الشريفة المتطلعة لمعالي الأمور.. أم أصحاب النفوس الضعيفة المتهافتة ذات الصفات الحيوانية.

إن أصحاب النفوس الأبية يقولون:

إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي وتفسي تشتهيه
وتأبى الأسود ورود ماء إذا كنّ الكلاب يلغن فيه

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية:

قوة العلم بسوء عاقبة المعصية من سواد الوجه وظلمة القلب.. وتمزق الشمل وضعف القلب عن مقاومة عدوه. تعريه تماما من زينة التقوى بالثوب الذي جمله الله وزينه به. العصرة التي تنال القلب من المعصية.. القسوة والحيرة في أمره.. تخلي الله عن العاصي.. وتولي العدو له.. تواري العلم الذي كان حاصلا.. مرض القلب.. ذله بعد عزه..

ومن عقوبات المعصية:

أن يصير أسيرا في يد أعدائه.. ويضعف تأثيره فلا ينفذ أمره..
ومنها.. زوال أمنه وتبدله مخافة.. فأخوف الناس أشدهم إساءة...

ومن عقوبات المعاصي:

زوال الأنس واستبداله بالوحشة.. وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة.. وتقع للعاصي وحشة بينه وبين أصدقائه وأصحابه.. ثم بينه وبين أهله.. ثم لا يلبث أن تقع الوحشة بينه وبين نفسه.. فيصير مهموما.. محزونا ولا يعرف لذلك سببا إلا ذنوبه..

ثم تقع الوحشة بينه وبين الله وتلك أكبر العقوبات.. فيحاول أن يرفع يده ليدعو ربه فلا يستطيع.. يحاول أن يتذكر دعاء لكشف كرباته فلا يذكر..

تلك الوحشة لبن العبد وبين الله هي أكبر وأخطر أنواع الوحشة وهي من عقوبات المعاصي.. فإذا كنت قد أوحشتك الذنوب فخلي النفس عنها واستأنس .. تب الى الله فيبدل وحشتك أنسا.. وكفى بالقرب من الله أنسا.. نعم إنّ الانسان ـ وأنا أقسم بالله غير حانث ـ إن لم يجد طعاما ولا شرابا ولا زوجة ولا أولادا.. وكان قلبه مليئا بحب الله.. مستلذا بطاعته.. لاستغنى عن كلّ من في الكون سوى الله.

ومنها.. زوال الرضا.. واستبدال السخط به..

ومنها.. زوال الطمأنينة والسكون الى الله والإيواء عنده.. فيطرد عن الله ويبعد عنه..

ومنها.. وقوع العبد في بئر الحسرات.. فلا يزال في حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه الى نظيرها.. وإن لم يقض منها وطرا.. وإن قضاها نازعته نفسه الى غيرها. فيظل في بئر الحسرات فيجد أنه كلما قضى وطره من لذة عجز عن أضعاف.. أضعاف ما يقدر عليه وكلما اشتد نزوعه.. وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه.. فيا لها من عقوبة.. نار في الدنيا قبل الآخرة.. قد عذب بها القلب في هذه الدار.. قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

ومنها.. فقره بعد غناه.. فإنه كان غنيا بالإيمان.. فلما عصى افتقر..

ومنها.. نقصان رزقه: " إنّ العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه".

ومنها: ضعف بدنه.

ومنها.. زوال المهابة والحلاوة التي اكتسبها بالطاعة.. فيبدل بها حقارة.

ومنها.. حصول البغض والنفرة منه في قلوب المؤمنين: إنّ العبد ليخلو بمعاصي الله فيلقى بغضه بينه وبين قلوب المؤمنين وهو لا يشعر.

ومنها.. ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأغلاها وهو العمر.

ومنها.. طمع عدوه فيه وظفره به فإن الشيطان إذا رآه منقادا مستجيبا اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير الشيطان مولاه من دون الله.

ومنها.. الطمع على قلبه: فإن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب فإذا تاب صقل قلبه.. وذلك هو الران {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين: ١٤].

ومنها.. الحرمان من حلاوة الطاعة: فإذا فعل الطاعة لم يجد حلاوتها فإن الطاعة تثمر اللذة بشرط التوبة..

سئل بعض السلف: هل يجد العاصي لذة الطاعة؟ قال: لا والله ولا من همّ.

ومنها.. أن المعاصي تمنع القلب من ترحله الى الآخرة فإنّ القلب لا يزال مشتتا.. مضيعا.. حتى يرحل من الدنيا وينزل بالآخرة فإذا نزل القلب في الآخرة جاءته فأقبلت إليه وفود

التوفيق والعناية من كلّ جهة أما إذا لم يترحل الى الآخرة فالتعب والعناء والشتات والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها.. إعراض الله عنه: وإذا أعرض الله عن جهة أظلمت أرجاؤها ودارت بها النحوس.. فإذا أعرض العبد عن طاعة الله عز وجل واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه وإذا أعرض الله عنه أعرضت الملائكة عنه فحرم التوفيق والإعانة وخذل.. كما أنه إذا أقبل على الله. أقبل الله عليه: { إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} [الأنفال:١٢].
{إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} [فصّلت:٣٠].

ومنها.. أنّ الذنب يستدعي ذنبا ثانيا.. ثم يقوي أحدهما الآخر.. فيستدعيان ذنبا ثالثا ثم رابعا.. وهكذا.. حتى يستحكم الهلاك.

ومنها.. علمه بفوات ما هو أحب اليه وخير له من جنسها (يعني من جنس المعصية) وغير جنسها.. فإنّ الله لا يجمع للعبد أبدا لذة المحرمات ولذة الطاعات..

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا لذلك يخاطب الكافرون يوم القيامة { أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا} [الأحقاف: ٢٠] وفي الحديث القدسي" لا أجمع على عبدي أمنين ولا أجمع له خوفين".

ومنها.. علمه الذي هو زاده ووسيلته الى دار إقامته.. فإن تزوّد من معصية الله.. أوصله ذلك الزاد الى دار العصاة والجناة.. وإن تزود من طاعته وصل الى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها.. علمه بأن عمله سيكون في قبره جليسه فإذا عمل السيئات فجليسه أسود منتن مخيف.

ومنها.. علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد.. وتقوم به حتى توصله الى الله { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠].

ومنها.. أن العاصي قد خرج من حصن الله الحصين.. الذي لا ضياع على من دخله.. فيخرج بمعصيته حتى يصير نهبا للصوص وقطاع الطرق..

فما الظن بمن خرج من الحصن الحصين.. لا تدركه فيه آفة.. الى خربة موحشة مأوى اللصوص وقطاع الطرق.. هل يتركون معه شيئا..؟!

ومنها.. أنه بالمعصية تعرض لمقت الله فتمحق بركة عمره.. وبركة ماله.... وبركة أهله.. بالجملة تمحق بركة العبد..

هذه سبع وعشرون عقوبة لكي تردعك.. لتترك المعصية وتصبر عنها.. وهذه أمثلة فقط وإلا فالعقوبات على المعاصي لا تنحصر..

وقد مضى الحديث عن سبعة أسباب للصبر عن المعصية.. ونستكملها معا.

السبب الثامن: قصر الأمل وكثرة ذكر الموت:

فتخشى أن يفجأك الموت وأنت على الذنب فتسوء خاتمتك وتبوء بالخذلان..

السبب التاسع: مجانبة الفضول في الطعام والشراب والملبس والمنام والمخالطة والكلام والنظر..

فإن قوة الداعي الى المعاصي تنشأ من هذه الفضلات.

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: هو ثبات شجرة الايمان في القلب..

فيكون صبر العبد عن المعاصي بمقدار قوة إيمانه.. فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الايمان ضعف الصبر..

إذا باشر الايمان قلبه بقيام الله سبحانه وتعالى عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرمه عليه وبغضه ومقته لفاعله.. باشر الايمان قلبه بالثواب والعقاب والجنة والنار وعندها يمتنع من المعاصي والذنوب.. إذا قوي سراج الايمان في القلب أضاءت جهاته كلها به وأشرق نوره في أرجائه وسار ذلك النور الى الأعضاء وانبعث اليها فأسرعت الى الطاعات وانكفت عن المعاصي.

علل التوبة

رميت يوسف قلبك في جب الهوى

وجئت على قميص التوبة بدم كذب

فالله المستعان على ما تصفون

علل التوبة

١- إنعدام الإخلاص:

كأن يتوب العبد لضعف داعي المعصية.. وخمود نار الشهوة.. فصحح توبتك بتصحيح إخلاصك ومثال ذلك:

الخوف على الصحة أو المال أو الجاه أو الخوف من الفضيحة بأن يقول إن الله قد سترنيب حتى الآن فأنا لا أضمن أن يسترني بعد ذلك فتتوب.. هذه من علل التوبة.

الإفلاس على الصحة والعجز وعدم الاستطاعة: لذلك تكلم العلماء في صحة توبة العنين من الزنا هل له توبة؟ هل لمن أخرس توبة من الكذب؟ فالجواب: نعم بالإخلاص.

للراحة من اكسب في تحصيل الذنب: إنه يحدث نفسه بأن المعاصي أجهد عليه من الطاعات فيتوب لراحة نفسه لا لله.

لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق فيتوب للحال لا خوفا من ذي الجلال.

حتى لا يتسلط عليه السفهاء.

أن يتوب لاستدعاء حمد الناس والهروب من ذمهم.

لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته فيكون قد تاب خوفا من نظر الناس اليه وليس الله.

٢- ضعف العزيمة والتفات القلب الى الذنب الفينة بعد الفينة.. وتذكر حلاوة المواقعة.. ربما هاج هياج نفسه للعودة للذنب مرة أخرى وهذا من علل التوبة لأن المطلوب الندم واستقباح الذنب.
٣- الطمأنينة ووثوقه بنفسه حتى كأنه قد أعطى صكا بالأمان.

٤- جمود العين واستمرار الغفلة.. دموع العين من رطوبة القلب.. وجمود العين من قسوة القلب.. والتوبة لا بد من وجل القلب ورقة الاحساس لتحصل المسارعة بالتوبة.. وفقدان واحدة من أولئك دليل فقدان الكل.

٥- ألا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل التوبة { إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا} [الفرقان: ٧٠] فيجب أن يكون له مثلا لقيام ليل إذا لم يكن له قبل التوبة.. إن لم يكن له ورد من القرآن يجب أن يكون له ورد.. المداومة على الأذكار.. الى آخره..

علامات التوبة المقبولة

خذ حديث القوم جملة واقتنع بالعنوان

أملهم أكثر من فتر
منازلهم أقفر من قبر
نومهم أعز من الوفاء
السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر
أخبارهم أرق من نسيم السحر
مآقيهم بالدموع الدائمة دامية
الهموم على الجوانح جوانح
هذا يعاتب نفسه على التقصير وهذا يتفكر في هول المصير
وهذا يخاف من ناقد بصير

علامات التوبة المقبولة

أولا: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها:

شرط قبول التوبة أن تكون بعد التوبة خيرا مما كنت قبل أن تتوب.. المداومة على الطاعات وفعل الخيرات.. إنّ التفريط في الطاعات بعد التوبة دليل على أنك سوف تنكص على عقبيك وأن الله لم يقبل توبتك.

ثانيا: ألا يزال الخوف من العودة الى الذنب مصاحبا له:

لا يأمن مكر الله طرفة عين.. فالمؤمن ينظر الى ذنبه كأنه في أصل جبل.. يخشى أن يهوي فوق رأسه.. والمنافق ينظر الى ذنبه كأنه وقعت ذبابة على أنفه.. فقال بها هكذا.. قال تعالى:{ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون* أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين* أو يأخذهم على تخوّف فإن ربكم لرؤوف رحيم} [النحل: ٤٥-٤٧].

وقال تعالى:{ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون* أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون*

أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون} [الأعراف: ٩٧-١٠٠].

وقال تعالى:{ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} [العنكبوت:٤٠].

كمثل أحدهم يذنب.. فتقول له: تب.. فيقول: أنا في كل صباح أقول:" سبحان الله وبحمده" مائة مرة فتغفر لي ذنوبي.. فأصنع طوال النهار ما أريد.. فهذا خاسر.. من كيسه ينفق.. على نفسه يجني.. فلعل الله أن يطبع على قلبه ويأخذه على معصيته فيضيع.. إذا تبت فألزم قلبك الخوف.. ولا تأمن مكر الله.. واحذر أن يفتر خوفك فيكون الرجوع من حيث أتيت.

ثالثا: انخلاع القلب وتقطعه ندما وخوفا من العقوبة العاجلة والآجلة:

قال الله تعالى:{لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطّع قلوبهم} [التوبة: ١١٠].

وقال عز وجل:{ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة:١١٨].

رابعا: كسرة خاصة لا تحصل الا للتائب:

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء.. ولا تكون لغير المذنب.. لا تحصل بجوع.. ولا حب مجرد.. وإنما هي أمر وراء هذا كله.. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة.. وقد أحاطت به من جميع جهاته.. وألقته بين يدي ربه طريحا ذليلا خاشعا..

فليس شيء أحب الى الله من هذا الكسرة.. والخضوع والتذلل.. والإخبات.. والإنطراح بين يديه.. والإستسلام له.. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال:" أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني.. أسألك بقوتك وضعفي.. وبغناك عني.. وفقري إليك.. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك.. عبيدك سواي كثير.. وليس لي سيد سواك.. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك.. أسألك مسألة المسكين.. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل.. وأدعوك دعاء الخائف الضرير.. سؤال من خضعت لك رقبته.. ورغم لك أنفه.. وفاضت لك عيناه.. وذل لك قلبه".

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة.. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته.. وليرجع الى تصحيحها.. فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة.. وما أسهلها باللسان والدعوى.. وما عالج الصادق شيئا أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة.. ولا حول ولا قوة إلا بـ الله...

إن التائب تحصل له كسرة خاصة لا تكون لغير التائب.. كسرة تامة قد أحاطت بالقلب من جميع الجهات.. ألقته بين يدي سيده طريحا ذليلا خاشعا.. منكسرا سريع الدمعة.. قريب الذكر لله.. مخبتا خاشعا منيبا.. رطب بذكر الله.. لا غرور ولا عجب ولا حب للمدح.. ولا معايرة ولا احتقار للآخرين بذنوبهم.. وإنما دائم الفكرة في الله سبحانه وتعالى عز وجل...

أيها الحبيب

سرت معي في دروب نالك فيها من الخوف الكثير، ومن التعب أكثر لأصل بك الى جادة طريق التوبة.
رجائي في الله كبير أن تكون قد هانت الدنيا في عينك فحين يبدأ بصرك يفارق حروفي.

أوصيك ونفسي

بتقوى الله.. انفض غبار الدنيا.. ألق رداء الكسل عليك بالعزيمة الصادقة في مجاهدة النفس.
اجعل آخر حرف من هذا الكتاب بداية للتوبة الصادقة تسبقها دمعة تجمّل مآقيك وينفتح لها قلبك.

{في قلوبهم}

الخاتمة

كان بعضهم يقول في مناجاته:

ليت شعري ما اسمي عندك يا علام الغيوب؟

وما أنت صانع في ذنوبي يا غفار الذنوب؟

وبم تختم عملي يا مقلب القلوب؟

الخاتمة نسأل الله حسنها

إخوتاه..

بهذا أكون قد قلت كل ما عندي.. وكل ما أطيقه.. والله الموفق..

إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بـ الله.. عليه توكلت وإليه أنيب، وقد فعلت ما عليّ.. وأبرزت لكم ضعفي.. وما زلت أعالج مسمار الهوى في قلب العاصي.. أميل به تارة الى جانب التخويف... وتارة الى جانب التشويق.. ولما ضعف الماسك بإزعاجي له اتسع عليه المجال فجذبته.. فعلي جذبت حبّ المعصية من قلوبكم..

أنفت لصبي اللعب من بيع جوهر العمر النفيس للهوى.. فشددت عليه في الزجر ليعلم بعد البلوغ أني لم أخنه بالغيب..

توبوا إخوتاه.. فلعلّكم لا تمكثون مليّاً.. فتحملون على أعناق الرجال..

يا صبيان التوبة.. قد عرفتم شرور أعطان الهوى.. فارحلوا طالبين طهارة التقوى.. حثوا مطايا الجد ولا يلتفت منكم أحد.. وامضوا حيث تؤمرون. توكلوا على الله.. توبوا ولا تخافوا.. أقبلوا ولا تلتفتوا.. امضوا الى ربكم والله يعفو عنّا وعنكم.. ويرحمنا وإيّاكم.. اللهم هذا الجهد وعليك التكلان.. وهذا العمل ومنك التوفيق.. اللهم تب علينا توبة نصوحا.. اللهم تب علينا توبة ترضيك.. اللهم تقبّل توبتنا.. واغسل حوبتنا.. وامح خطيئتنا.. وارفع درجتنا.. اللهم اغفر لنا ولكم..

وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

وكتبه أفقر الورى

محمد حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه ولزوجاته وأولاده

ولجميع المسلمين والمسلمات

الوادع

يا صاحب الخطايا لست معنا يا مقبلا على الهوى ما أنت عندي

ضاعت حيلي في تحصيل قلبك اشتدت حيرتي في تلاقي أمرك

واعجبا

أخوّفك عواقب الأمور وما تتوب أشرح لك أحوال الصادقين وما تتوب

ومتى سقطت شهوة العليل دنا الموت

قد أوقدت نار المواعظ الى جانب كسلك ونفس عزيمتك شديدة البرودة

انتهى والحمد لله
شبكة مجاهد مسلم الاسلامية الدعوية
بيروت لبنان
١٩ كانون الثاني ٢٠٠٣
www.islammi.jeeran.com